المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

من بلاغة القرآن الكريم
في الحديث عن بعض صفات النبي- ﷺ -

From the eloquence of the Holy Qur'an
in talking about some of the attributes
of the Prophet - may God bless him and grant him peace -

إعداد الدكتور
سمير سعدالدين أبو المجد سلامه
مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا،
جامعة الأزهر، مصر.

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050
العدد الثاني من إصدار يونيه ٢٠٢٥م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن بعض صفات النبي- ﷺ -

سمير سعدالدين أبو المجد سلامه

قسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، جامعة الأزهر، مصر .

البريد الإلكتروني: SamirSaiama.4119@azhar.edu.eg

الملخص :

الهدف من هذه الدراسة هو: إلقاء الضوء على بعض الآيات القرآنية الكريمة الواردة في وصف الحبيب المصطفي-ﷺ- وتحليلها تحليلًا بلاغيًّا وافيًا؛ من أجل استخراج النكات البلاغية، والوجوه البيانية الواردة فيها، فصفات المعصوم- ﷺ- الواردة في الذكر الحكيم لا تنتهي؛ لذلك وقع اختياري في هذا البحث على دراسة بعض صفاته من أجل وقوف القارئ عليها، والنظر إليها نظرة تأمل وإعجاب. وقد ضرب لنا الحبيب المصطفي-ﷺ- أروع الأمثلة في أجلّ الصفات وأعظمها، فلقد كان قرآنًا يمشي على الأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]. وتعدد هذه الصفات في الذكر الحكيم يدلُ على عظمة الموصوف- ﷺ-، فالنبيُّ الكريمُ هو النبيُّ الوحيدُ الذى انفرد بصفات عدّة دون بقية الأنبياء والرسل الكرام -عليهم السلام-.

خطة البحث: وقد اتبعتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائيّ التحليليّ؛ انسجامًا مع غرض الدراسة، فبدايةً أقومُ بجمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن صفةٍ معينةٍ من صفات الحبيب المصطفي-ﷺ- وبعد جمعها أقفُ عليها بالبحث والتحليل محاولًا استخراج السمت القرآني البلاغي الوارد في هذه الصفة. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها: أنّ صفات النبي الكريم -ﷺ- الواردة في الذكر الحكيم كثيرةٌ لا تنتهي، وأنّها تحتاج إلى المزيد من الدراسات القرآنية البلاغية المستقلة، التي تكشفُ عن أسرارها، وتبحثُ عن وجوه إعجازها في القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لقد وقفتُ في هذا البحث على دراساتٍ سابقةٍ، ولكنها لم تتناول الموضوع من الناحية البلاغية، ومن أشهر هذه الدراسات:

١- النبي-ﷺ- في القرآن، بقلم: فضيلة الإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر، قضايا إسلامية معاصرة، تحدث فضيلته في هذا الكتاب عن هدى

النبي الكريم-ﷺ-، وسلوكه الرباني، ورحمته العامة الشاملة وباهر معجزاته، دون التعرض تمامًا للحديث عن الصفات التي تحدثت عنها، كما أنه لم يتطرق نهائيًا للحديث عن السمات البلاغية القرآنية.

٢- شذرات من أوصاف الرسول الأكرم محمد-ﷺ- وآله في القرآن الكريم، د/ مهدي محمد جواد، جامعة بابل، كلية التربية الأساسية، عدد:١٧، أيلول ٢٠١٤، وقد تحدث فيه الباحث عن صفات النبي-ﷺ- باختصارٍ شديدٍ دون التعرض للنكات البلاغية.

٣- صفات النبي-ﷺ- في القرآن الكريم[تفسير موضوعي]، د/ إيمان بنت عبدالله العمودي، وهي رسالة علمية تناولت فيها الباحثة الحديث عن صفات النبي-ﷺ- الواردة في القرآن الكريم فقط، وهي تسعون صفة جمعتها الكاتبة وصنفتها إلى أنواع عدة، تقدم الكاتبة الآيات، ثم تشرحها، ثم تبين الصفة المذكورة فيها، ثم توضح كيف تمثلت في النبي-ﷺ-، وهي تتعرض لها من الناحية التفسيرية مع التعرض قليلًا للحديث عنها من الناحية البلاغية.

٤- صفات النبي-ﷺ- وأخلاقه وحياته من خلال القرآن الكريم، د/ محمد مصطفي محمد صالح، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بكلية الآداب- جامعة الخرطوم- السودان، وقد تحدث فيه الباحث عن حياة النبي-ﷺ- وصفاته وأخلاقه دون التعرض نهائيًا للحديث عنها من الوجهة البلاغية.

الكلمات المفتاحية: بلاغة القرآن- صفات النبي-ﷺ-.

(From the eloquence of the Holy Qur'an in talking about some of the attributes of the Prophet - may God bless him and grant him peace -)

Samir Saad Al-Din Abu Al-Majd Salamah
Department of Rhetoric and Criticism at the College of Islamic and Arabic Studies for Boys in Qena, Al-Azhar University, Egypt.
Email: SamirSaiama.4119@azhar.edu.eg

Abstract

The aim of this study is: to shed light on some of the noble Qur'anic verses mentioned in the attributes of the Beloved Chosen One - may God bless him and grant him peace - and analyze them in a comprehensive rhetorical manner. In order to extract rhetorical jokes and the graphic aspects contained therein, the attributes of the Infallible - peace be upon him - mentioned in the Wise Remembrance are endless; Therefore, in this research, I chose to study some of his characteristics in order for the reader to understand them and look at them with contemplation and admiration The Beloved Chosen One - may God bless him and grant him peace - gave us the most wonderful examples of the greatest and greatest qualities. He was a Qur'an that walked on the earth, and God Almighty was truthful when he said: (And indeed, you are the most exalted of creation). The multiplicity of these attributes in the Wise Mention indicates the greatness of the one described - peace be upon him. The Noble Prophet is the only prophet who is unique in having several attributes, apart from the rest of the prophets and messengers. In this research, I followed the inductive and analytical approach. In line with the purpose of the study, first I collect the Qur'anic verses that talk about a specific characteristic of the Beloved Chosen One - may God bless him and grant him peace - and after collecting them, I research and analyze them, trying to extract the rhetorical Qur'anic characteristic contained in this characteristic. The study reached results, the most important of which are: that the attributes of the Holy Prophet mentioned in the Wise Qur'an are endless and numerous, and that they require more independent rhetorical Qur'anic studies that reveal their secrets and search for the aspects of their miraculousness in the Holy Qur'an.

Keywords: Eloquence - The Qur'an - Attributes - The Prophet - peace be upon him -.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائلِ في كتابه الكريم لنبيه المصطفي، ورسوله المجتبي:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]، والصلاةُ والسلامُ علي أشرف رسل الله سيدنا محمد- ﷺ-، وعلى آله وصحبه الأطهار، ورسله الأبرار، وعلي من سار علي دربه، واقتفي أثره الطاهر الشريف إلي يوم الدين.

أمَّا بعد:

إن حديث القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل الأطهار لا ينتهى، ووصفه لهم بصفاتٍ عدّة، وصفهم الله- تعالى- إيّاهم بها في كتابه الكريم، هو من أفضل الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة؛ وذلك من أجل الكشف عن أسرارها البلاغية، وسماتها البيانية، ويأتي في مقدمة أكثر الأنبياء وصفًا في الذكر الحكيم سيدنا محمد- ﷺ-، فلقد وصف القرآنُ الكريمُ النبيُّ محمدًا- ﷺ- بصفاتٍ عدّة في مواضع مختلفة، فوصفه تارةً بالبشير النذير، وأخري بالشهيد، وتارةً وصفه بالرؤوف الرحيم، وأخري بصاحب الخُلُق العظيم إلى غير ذلك من أوصافٍ أخري، هذه الصفات جميعها تدل على رفعة مكانة النبي-ﷺ- عند خالقه- عز وجل-.

والرسولُ الكريمُ- ﷺ- هو أجلُّ النعم التي أنعم اللهُ بها على عباده المؤمنين، لذا كان حقه علينا عظيمًا، وواجبنا نحوه جليلًا، فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتّاه اليقين، وصفه الله- تعالى- في كتابه الكريم بأنّه على خُلُقٍ عظيمٍ فقال- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤] ، فما أعظم من وصفه، كما وصفه ربه- تعالى- بصفات عديدة فقال- تعالى-:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيداً)[النساء: ٤١]، وجميع هذه الصفات تدلُ على شرف الحبيب المصطفى-ﷺ-.

وقد كنت شغوفًا في هذا البحث بالتحري عن الآيات الكريمة التي وصفت خير البرية-ﷺ-، واقفًا عليها بالبحث والتحليل مستخرجًا الأسرار البلاغية،

والنكات البيانية التي تصف الحبيب المصطفي-ﷺ-، وقد تعددت هذه الصفات، وتعددها يدل على عظمة الموصوف-ﷺ-.

أهمية الموضوع:

هذا، وقد حفَّزني لهذا الموضوع عدّة أمور، من بينها:

أولًا: شرف الموضوع؛ لكونه متعلقًا بالقرآن الكريم، وبصفات النبي-ﷺ-.

ثانيًا: الشغف الكبير في البحث عن صفات النبي-ﷺ- الواردة في القرآن الكريم، والوقوف عليها، وتحليلها تحليلًا بلاغيًّا وافيًا من أجل استخراج النكات البلاغية، والوجوه البيانية الواردة في وصف الحبيب المصطفي-ﷺ-.

ثالثًا: اشتمال العديد من الآيات القرآنية على الكثير من صفات النبي-ﷺ- الجديرة بالبحث والدراسة.

رابعًا: دراسة هذه الصفات، والوقوف عليها بالبحث والتحليل يكشف عن المكانة العظيمة للنبي-ﷺ- عند ربه- عز وجل- فقد رفع اللهُ قدره وأعلى شأنه.

أهداف البحث:

أولًا: استقراء صفات النبي- ﷺ- الواردة في القرآن الكريم، ودراسة كلِّ آية قرآنية تضمنت صفة من صفاته العظيمة على حدة.

ثانيًا: الوقوف على خصوصية سمت الذكر الحكيم في الحديث عن صفات النبي- ﷺ- دون غيره من الأنبياء والرسل الكرام- عليهم السلام-.

ثالثًا: إخراج دراسة قرآنية تتعلق بإبراز الجانب البلاغي في الحديث عن وصف النبي الكريم- ﷺ-.

منهج البحث:

وقد سارت هذه الدِّراسة وفق المنهج الاستقرائيّ التحليليّ، والذي تمثله خطوات متتابعة، تشكل جوهر البحث، ومحور الدِّراسة، علي النحو الآتي:

أولًا: دراسة الآيات القرآنية الكريمة الواردة في وصفٍ معينٍ للنبي-ﷺ- دراسة مستقلة في مبحثٍ خاصٍ مستقلٍّ بها.

ثانيًا: الوقوف علي بيان خصوصية الأسلوب القرآني الوارد في الحديث عن هذه الصفة.

ثالثًا: محاولة دراسة خصوصية سمت أسلوب القرآن الكريم الوارد في وصف الحبيب المصطفي-ﷺ-.

رابعًا: بيان الأسلوب البلاغي الوارد في وصف الحبيب المصطفي-ﷺ-، وما تكمنه هذه الأسرار من لطائف بلاغية، ووجوه بيانية وردت في وصف النبي الكريم-ﷺ-.

خطة البحث:

هذا، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يجيء في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعة مباحث رئيسة مذيلة بخاتمة وفهرس وثبت بأهم المصادر والمراجع، وآخر يضم محتويات البحث وموضوعاته.

أما المقدمة: فتحدثتُ فيها عن أهمية الموضوع، والأسباب الداعية إلى اختياره، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

وأما التمهيد: فقد تناولت فيه مفهوم الوصف في اللغة والاصطلاح، أما المباحث فقد جاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: بعنوان: وصفه- ﷺ- بالبشير النذير.

المبحث الثاني: بعنوان: وصفه - ﷺ- بالشهيد.

المبحث الثالث: بعنوان: وصفه- ﷺ- بالرؤوف الرحيم.

المبحث الرابع: بعنوان: وصفه- ﷺ- بالخُلُق العظيم.

وأمّا الخاتمة، فأوجزتْ أهم نتائج الدِّراسة. وأمّا الفهرس: فيضم فهرسًا للمصادر والمراجع، وآخرًا لمحتويات البحث وموضوعاته.

وبعدُ: ففي الختام: نحمدُ الله- تعالى- ونشكرهُ على ما يسّر وهدى، وما كنا لنهتدي لولا أن هدآنا الله، فلله الحمد في الأولى والآخرة، ونعوذ به من شر الخطأ والزلل والقول عن رسوله بلا علمٍ، ونستغفره عما وقع ممّا لا ينفك عنه بشرٌ من الخطأ والنسيان، والله من وراء القصد.

التمهيد

مفهوم الوصف في اللغة والاصطلاح

مفهوم الوصف في اللغة :

عند النظر في أقوال أهل اللغة نجد أن مفهوم صفة الشيء: حليته، وما تواصف به: أي: عُرف به، فالصفة تحلية ونعت.

فالوصف عند(ابن فارس):" الْوَاوُ وَالصَّادُ وَالْفَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، هُوَ تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ. وَوَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وَصْفًا. وَالصِّفَةُ: الْأَمَارَةُ اللَّازِمَةُ لِلشَّيْءِ، كَمَا يُقَالُ وَزَنْتُهُ وَزْنًا، وَالزِّنَةُ: قَدْرُ الشَّيْءِ. يُقَالُ اتَّصَفَ الشَّيْءُ فِي عَيْنِ النَّاظِرِ: احْتَمَلَ أَنْ يُوصَفَ" (١).

وفي معجم لسان العرب(لابن منظور):" وَصَفَ الشيءَ لَهُ وَعَلَيْهِ وَصْفاً وصِفَةً: حَلَّاه، وَالْهَاءُ عِوَضٌ مِنَ الْوَاوِ، وَقِيلَ: الوَصْف الْمَصْدَرُ والصِّفَةُ الحِلْيَةُ، اللَّيْثُ: الوَصْف وَصْفُكَ الشَّيْءَ بحِلْيته ونَعْته. وتَوَاصَفُوا الشيءَ مِنَ الْوَصْفِ. وَقَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-:(وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى مَا تَصِفُونَ) [الأنبياء:١١٢]؛ أَراد مَا تَصِفُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ. واسْتَوْصَفَهُ الشيءَ: سأَله أَن يَصفه لَهُ"(٢).

أمّا عن مفهوم الوصف في الاصطلاح:

إذا ما انتقلنا إلى تعريف الوصف في معناه الاصطلاحي، فهو من الأغراض الشعرية التقليدية المتجددة، وهو فنٌ واسع الأطراف يُصيب سائر الأمور ماديتها ومعنويتها، ومجاله الطبيعة بما فيها من الكائنات الحية والجامدة، وأسرار النفوس، وحقائق المشاعر، وصنوف الأحاسيس، " فهو ترجمةٌ لمرئيات الأديب ومحسوساته، ونقل ذلك بأسلوبٍ جميلٍ فيه الخيال والتأثر، واختلاف صور وهيئات لم تكن موجودة في الواقع المادي الحسي" (٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، تأليف/ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مادة:[و ص ف]، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب، تأليف/ محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، مادة:[و ص ف]، ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه.

(٣) آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، د/ ياسين الأيوبي، ص:١٩٢، ط: جروس برس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

"فالوصفُ جزءٌ من منطق الإنسان لأنّ النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها عن الموجودات، ويكشف للموجودات منها، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها إلى التصور عن طريق السمع والبصر والفؤاد"(١).

وعن أحسن الوصف يقول[الرافعي]:"إن أحسن الوصف الصادق إذا خرج من علمٍ وصرفته روعة العجب، فإن العلم يُعطى مادة الحقيقة، والعجب يُكسبها صورة المبالغة الشعرية"(٢).

ومن خلال ما قاله:[الرافعي] نلحظ أن الوصف وسيلةٌ أدبيةٌ يستعينُ الشاعرُ بها لتصوير إعجابه بما يُشاهده، معتمدًا في ذلك على الخيال وصدق التعبير، وكلما كان الشاعر عالمًا بأحوال الموصوف وحالاته، وقادرًا على استقصاء هذا العلم في شعره كان أبلغ في الوصف.

وقد اتفق أهل اللغة على مفهوم الوصف والصفة وإن اختلفت أقوالهم، إلا أنّ هناك فرقًا بين الوصف والصفة. فالوَصْفُ: ذكرُ الشيءِ بحليته ونعته، والصِّفَةُ: الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته(٣).

وممّا سبق يتضح : أنّ المراد بصفات النبي-ﷺ- في القرآن الكريم في ضوء المفهوم اللغوي: ذكره- ﷺ- بنعته وحالته اللازمة لشخصيته العظيمة التي كان عليها ممّا وردت به آيات الذكر الحكيم.

---

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي،٢:١٠٨، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق،٢: ١٠٨- ١٠٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان بن عدنان الداوودي، ٨٧٣، ط: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤١٢هـ.

المبحث الأول

وصفه - ﷺ - بالبشير النذير

وصف القرآنُ الكريمُ النبيُّ محمدًا-ﷺ- بالبشير النذير، قال- تعالى-: (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشّرًا وَنَذِيرًا)[الأحزاب:٤٥]، وقال- تعالى-: (إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...)[البقرة: ١١٩]، والبشير: هو المبشِّر لمن أطاعه بالثواب، والنذير: هو المنذر لمن عصاه بالعقاب(١). وقد تعددت الآيات القرآنية التي وصفت الحبيب المصطفي- ﷺ- بالبشير النذير، فقال- تعالى-:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...)[البقرة: ١١٩] ، وقال- تعالى-:(فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ...) [المائدة: ١٩]، وقال- تعالى-:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ...) [الأعراف:١٨٨]، وقال – تعالى-:(إِنَّنِى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)[هود:٢].

في الآية الأولى قال- تعالى- واصفًا النبي- ﷺ- بالبشير النذير:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...)[البقرة: ١١٩]، هذه الآية تسليةٌ لرسول الله- ﷺ- فإنّه كان يضيق صدره لتماديهم على ضلالهم. ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّه لما ذكر أنه بيّن الآيات، ذكر من بينت على يديه، فأقبل عليه وخاطبه- ﷺ- ليعلم أنّه صاحب الآيات فقال:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ)أي: بالآيات الواضحة، وفُسر{الحق}: هنا بالصدق وبالقرآن وبالإسلام. وبالحق في موضع الحال، أي: أرسلناك ومعك الحق لا يزايلك(٢).

وانتصاب[بشيرًا ونذيرًا] على الحال من الكاف، ويحتمل أن يكون حالًا من الحق، لأنّ ما جاء به من الحق يتصف أيضا بالبشارة والنذارة. والأظهر الأول.

---

(١) زادُ المعاد في هدى خير العباد، تأليف/ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد شمس الدين المشهور بابنُ قيِّم الجوزيَّة، ص: ٣٢، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ه- ٢٠٠٩م .

(٢) البحر المحيط في التفسير، تأليف/ أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ١: ٥٨٨، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ه.

وعُدل إلى فعيل للمبالغة، لأنّ فعيلًا من صفات السجايا، والعدل في بشير للمبالغة، مقيس عند سيبويه، إذا جعلناه من بشر لأنهم قالوا بشر مخففًا، وليس مقيسًا في نذير لأنه من أنذر، ولعل محسن العدل فيه كونه معطوفًا على ما يجوز ذلك فيه، لأنه قد يسوغ في الكلمة مع الاجتماع مع ما يقابلها ما لا يسوغ فيها لو انفردت، كما قالوا: أخذه ما قدم وما حدث وشبهه(١).

فهذه الآية مواساةٌ للنبي الكريم، وتخفيفٌ عنه، مما يلقى من عنت قومه، فما هو إلا رسولٌ يبلغ ما أنزل إليه من ربه،(فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها)[الأنعام:١٠٤](٢). وهي جملة معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب، القصدُ منها تأنيس الرسول-ﷺ- من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقى من المشركين أو أشد وقد قال-ﷺ-: "لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ"(٣).

فكان لتذكير الله إيّاه بأنّه أرسله تهدئةٌ لخاطره الشريف وعذرٌ له إذ أبلغ الرسالة وتطمينٌ لنفسه بأنه غير مسؤولٍ عن قومٍ رضوا لأنفسهم بالجحيم. وفيه تمهيدٌ للتأييس من إيمان اليهود والنصارى. وجيء بالتأكيد وإن كان النبي لا يتردد في ذلك لمزيد الاهتمام بهذا الخبر وبيان أنه ينوه به لما تضمنه من تنويه

---

(١) البحر المحيط في التفسير، ١: ٥٨٨.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، تأليف/ عبد الكريم يونس الخطيب،١٣٥:١، ط: دار الفكر العربي، القاهرة،[د ت].

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه= صحيح البُخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البُخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ٥: ٧٠، حديث رقم:٣٩٤١، باب إتيان اليهود النبى- صلى الله عليه وسلم- حين قدم المدينة، ط: دار طوق النجاة(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

شأن الرسول[١]. وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفًا للنبي-ﷺ- بعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق – تعالى وتقدس- كأنّ الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له إن الله أرسلك[٢].

وقوله:(وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) الواو للعطف وهو إما على جملة:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ)أو على الحال في قوله:(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ويجوز كون الواو للحال[٣]. قرأ نافع ويعقوب بفتح الفوقية وسكون اللام على أن(لا) حرف نهي جازم للمضارع وهو عطف إنشاء على خبر والسؤال هنا مستعملٌ في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال مجازًا مرسلًا بعلاقة اللزوم لأن المعنى بالشيء المتطلع لمعرفة أحواله يكثر من السؤال عنه، أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه نحو قول عائشة: "يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ"[٤] ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو(فإن قلت) للاهتمام[٥].

(١) التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ١: ٦٩١، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ه.

(٢) المرجع السابق، ١: ٦٩١.

(٣) المرجع السابق ، ١: ٦٩٢.

(٤) الموطأ، تأليف/ مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: محمد مصطفي الأعظمي، ٢: ١٦٤، حديث رقم: ٣٩٤، ط: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية- أبو ظبى- الإمارات، الطبعة الأولى: ١٤٢٥ه- ٢٠٠٤م.

(٥) التحرير والتنوير،١: ٦٩٢.

ومعنى قوله – تعالى–:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً) معناه: إنا أرسلناك يا محمدٌ بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة، لتبشر بالثواب من آمن وعمل صالحًا، وتنذر بالعقاب من كفر وعصى(١).

والجحيم: المتأجج من النار. وأصحابها: الملازمون لها. والسؤال: كناية عن المؤاخذة واللوم. والمعنى: لا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذًا ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولًا عن عدم اهتدائهم(فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ)[الرعد:٤٠]. وفي وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعارٌ بأنهم قد طُبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر(٢)، وللدلالة على ما يستقبلهم من عقابٍ فللذين أحسنوا الحسنى وزيادة وللذين أساءوا السوءي(٣). وكذلك في التعبير عن الكافرين بأنهم أصحاب الجحيم: استهجانٌ لذكرهم، وإيذانٌ بعقابهم بالجحيم، وأنهم ملازمون لهذا العقاب، لما تفيده الجملة الإسمية من الاستمرار والدوام(٤). وفي هذه الجملة مع قوله:(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) تسليةٌ للرسول–ﷺ– حيثُ لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون(٥)، وبين:{بَشِيرًا وَنَذِيرًا}طباقٌ يوضح المعنى ويبرزه في النفس.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي، ١: ٢٦١، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٢) المرجع السابق، ١: ٢٦٢.

(٣) زهرة التفاسير، تأليف/ محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة، ١: ٣٨٦– ٣٨٧، ط: دار الفكر العربي، [د ت].

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث بالأزهر، م١: ١٨٤، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ه= ١٩٧٣م– ١٤١٤ه= ١٩٩٣م.

(٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي، ١: ٢٦٢.

أما قوله – تعالى-:(يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)[المائدة: ١٩]، في هذا الخطاب استلطافٌ ورفقٌ ولم يرد هنا ذكر تحريفٍ ولا تبديلٍ لسيلائم ما تقدمه في لين القول، ووطأة الإخبار، وتأمل التناسب بين الخطابين، وما بُنيا عليه يلحُ لك جليلُ الانتظامِ وعظيمُ التلاؤمِ، وأن عكس الوارد لا يمكن ولا يلائم والله- سبحانه- أعلم(١).

قال الإمام فخر الدين الرازي: "والفائدة في بعثة محمدٍ-ﷺ- عند فترة الرسل، هي أن التحريف والتغيير كان قد تطرف إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها، وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق، فصار ذلك عذرًا ظاهرًا في إعراض الخلق عن العبادات؛ لأنّ لهم أن يقولوا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكنا ما عرفنا كيف نعبدك، فبعثُ اللهُ في هذا الوقت محمدًا- ﷺ- لإزالة هذا العذر فذلك قوله- عز وجل-:(أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ) يعني: لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير في هذا الوقت(فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)[المائدة: ١٩] يعني: فقد أرسلت إليكم محمدًا-ﷺ- لإزالة هذا العذر.(وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يعني: أنه قادر على بعثة الرسل في وقت الحاجة إليهم" (٢).

وفي الآية امتنانٌ عليهم بأن بُعث إليهم حين انطمست آثار الوحى وكانوا أحوج ما يكونوا إليه(وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى- عليهما السلام- حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، تأليف/ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، ١: ١٢٤، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، [د ت].

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف/ علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم بن عمرو الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، ٢٦:٢، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.

نبى وعلى الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما السلام حيثُ كان بينهما ستمائة سنة وتسع وتسعون سنة أو خمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ما روى الكلبي ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب خالدين سنان العبسي وقيل لم يكن بعد عيسى إلا رسول الله-ﷺ- وهو الأنسب بما فى تنوين فترةٍ من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث إليهم عند كمال حاجتهم إليه بسبب مضى دهرًا طويلًا بعد انقطاع الوحى ليعدوه أعظم نعمة من الله وفتح

باب الى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يتعللوا غدًا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم كذا فى الإرشاد(١).

فقوله – تعالى-:(فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) متعلقٌ بمحذوفٍ تنبئ عنه الفاء الفصيحة وتبين أنّه معلل به. أي: لا تعتذروا(بما جاءنا) فقد جاءكم بشيرٌ أيٌّ: بشيرٍ، ونذيرٌ: أيٌّ: نذيرٍ.(وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ): من إرسال الرسل، والصواب لمن أجاب الرسل، والعقاب لمن لم يجبهم(٢). قال البقاعيّ: "وفي الختم بوصف القدرة، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من العز بالنبوّة والملك، بعدما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل، إشارةٌ إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل – عليه السلام- نبيٌّ يلزم منه إنكارهم للقدرة"(٣).

وقد كرر اللهُ- تعالى- موعظتهم ودعوتهم بعد أن بيّن لهم فساد عقائدهم وغرور أنفسهم بيانًا لا يدع للمنصف متمسكًا بتلك الضلالات، كما وعظهم ودعاهم

---

(١) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم، تأليف/ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي، ٣: ٢٢، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، [د ت].

(٢) محاسن التأويل، تأليف/ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ٤: ٩٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣) المرجع السابق، ٤: ٩٦.

آنفًا بمثل هذا عقب بيان نقضهم المواثيق[١]. فموقع هذه الآية تكريرٌ لموقع قوله:(يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مّمَّا كُنُتمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ)[المائدة: ١٥]الآيات، إلا أنه ذكر الرسول- ﷺ- هنا بوصف مجيئه على فترةٍ من الرسل ليذكرهم بأنّ كتبهم مصرحةٌ بمجيء رسولٍ عقب رسلهم، وليريهم أن مجيئه لم يكن بدعًا من الرسل إذ كانوا يجيئون على فتر بينهم. وذكر الرسول هنالك بوصف تبيينه ما يخفونه من الكتاب لأن ما ذكر قبل الموعظة هنا قد دل على مساواة الرسل في البشرية ومساواة الأمم في الحاجة إلى الرسالة، وما ذكر قبل الموعظة هنالك إنما كان إنباءٌ بأسرار كتبهم وما يخفون علمه عن الناس لما فيه من مساويهم وسوء سمعتهم[٢]. وحذف مفعول (يبين) لظهور أنّ المراد بيان الشريعة. فالكلامُ خطابٌ لأهل الكتاب يتنزل منزلة تأكيدٍ لجملة:(يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مّمَّا كُنُتمْ تُخْفُونَ)[المائدة: ١٥]،فلذلك فصلت[٣].

وقوله:(عَلَى فَتْرَةٍ مّنَ الرُّسُلِ) حال من ضمير(يبين لكم)، فهو ظرفٌ مستقرٌ، ويجوز أن يكون ظرفًا لغوًا متعلقًا ب:[جاءكم]. ويجوز تعلقه بفعل (يبين)؛ لأنّ البيان انقطع في مدة الفترة. و{على} للاستعلاء المجازي بمعنى{بعد}؛ لأنّ المستعلي يستقر بعد استقرار ما يستعلي هو فوقه، فشبه استقراره بعده باستعلائه عليه، فاستعير له الحرف الدال على الاستعلاء.

والفترة: انقطاع عمل ما. وحرف{من} في قوله: من الرسل للابتداء، أي: فترةٍ من الزمن ابتداؤها مدة وجود الرسل، أي: أيام إرسال الرسل. والمجيء: مستعارٌ لأمر الرسول بتبليغ الدين، فكما سمي الرسول رسولًا سمي تبليغه مجيئًا تشبيهًا بمجيء المرسل من أحدٍ إلى آخرٍ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير،١: ١٥٧.

(٢) المرجع السابق،١: ١٥٧.

(٣) المرجع السابق ،١/ ١٥٨.

(٤) المرجع السابق ، ٦/ ١٥٨.

وقوله- تعالى-:(أَنْ تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)[المائدة: ١٩]، جاء التعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكنه منهم. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محل عجب(١). والجملة الاسمية بطبيعة دلالتها تفيد الدوام والاستمرار، فهي تفيد إعراضهم التام عن الرسل وصدهم عن دعوتهم.

فجملة قوله- تعالى-:(أَنْ تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ)هي جملةٌ تعليليةٌ المقصود بها قطع معاذيرهم إذا احتجوا بالجهل وعدم معرفتهم لأوامر الله ونواهيه. والمراد بالبشير: المبشر الذى يبشر أهل الحق والطاعة بالخير والسعادة. والمراد بالنذير: المنذر الذى ينذر أهل الباطل والضلال بسوء المصير(٢). والمعنى: لقد جاءكم يا معشر أهل الكتاب رسولنا محمدٌ-ﷺ- يبين لكم شرائع الله بعد فترةٍ متطاولةٍ من انقطاع الرسل، لكي لا تقولوا على سبيل المعذرة يوم الحساب، ما جاءنا من بشيرٍ يبشرنا بالخير عند الطاعة، ولا نذيرٍ ينذرنا بسوء العاقبة عند المعصية. و[مِنَ] في قوله (مِنْ بَشِيرٍ):لتأكيد نفى المجيء. والتنكير في قوله:(بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) للتقليل، أي: ما جاءنا أي: بشيرٍ ولو كان صغيرًا، وما جاءنا أي: نذيرٍ ولو كان ضئيلًا(٣).

وهنا يسوق الله- تعالى- ما يبطل معاذيرهم، بإثبات أن البشير والنذير قد جاءهم فقال- تعالى-:(فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)[المائدة: ١٩]. والفاء: هنا للإفصاح عن كلامٍ مقدرٍ قبلها. والتقدير: لا تعتذروا بقولكم ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، فقد جاءكم رسولنا الذى يبشركم بالخير إن آمنتم وينذركم بسوء المصير إذا ما بقيتم على كفركم. والتنكير هنا في قوله:(بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) للتعظيم من شأن الرسول- ﷺ- الذى هو خاتم النبيين، والذى أرسله الله- تعالى- رحمةً للعالمين. وقوله:(بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) وإن كانا وصفين للرسول- ﷺ- إلا أن ثانيهما قد عطف على

---

(١) التحرير والتنوير،١٨/ ٩٥.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،٤: ١٠٠.

(٣) المرجع السابق،٤: ١٠٠.

أولهما لتغايرهما في المعنى؛ لأنّ التبشير عملٌ يختلف عن الإنذار، وكلاهما من وظائف النبوة(١).

وقوله- تعالى-:(وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تذييلٌ قصد به شمول قدرة الله وأنّه- سبحانه- لا يعجزه شيء. أي: والله على كل شيء قدير، فلا يعجزه أن يرسل رسله تترى، كما لا يعجزه أيضًا أن يرسلهم على فتراتٍ متباعدةٍ(٢). وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها، وأنها جاءت والناس في أشد الحاجة إليها، وأنه لا عذر لأهل الكتاب في عدم الاستجابة لها بعد أن بلغتهم، وبشرتهم بالخير إن آمنوا وأطاعوا، وبالعذاب الأليم إن استمروا على كفرهم وضلالهم(٣).

فقوله- تعالى-:(يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ لَكُمْ ...)[المائدة: ١٥]الآية. كرر اللهُ- تعالى- الخطاب بطريق الالتفات؛ بعدما أعرض عن خطابهم فذكرهم بأسلوب الغيبة. وهو يحكي أكاذيبهم. وإنما التفت إليهم تلطفًا في دعوتهم لعلهم يهدون (يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا): قد أتاكم رسولنا محمدٌ- ﷺ - وهو الذى بَشَّرَتْكُم به كُتُبُكُم، وأخبركم به أنبياؤُكم(٤).

(يُبَيّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ): جاءكم بعد مدةٍ خلت من الرسل: يبين لكم ما اندثر من الأحكام، ويبلغكم ما احتاج إليه العصر من شرعٍ جديدٍ، ويصحح ما حدث في كتبكم من تحريفٍ(٥). روى البخاري عن أبي هريرة: أنه- ﷺ - قال: "أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ"(٦).

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،٤: ١٠٠.

(٢) المرجع السابق،٤: ١٠٠.

(٣) المرجع السابق، ٤: ١٠٠.

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث بالأزهر، م٢: ١٠٤٣.

(٥) المرجع السابق، م٢: ١٠٤٣.

(٦) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه= صحيح البُخاري، ٤: ١٦٧، حديث رقم: ٣٤٤٢، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: "وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا"[مريم: ١٦] .

(أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ):أرسلناه إليكم لئلا تقولوا: ما جاءَنا بشيرٌ يُبشرنا بحُسن العاقبة للمؤمنين، ولا نذيرٌ يُنذرنا بسوء المصير للضالين.(فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ): فقد جاءَكم البشير والنذير، يبين لكم: أن الخلاص والنجاة والسعادة، منوطة بالإيمان بما جاء به، وبالعمل الصالح الذى يدعوكم إليه. والتعبير بقوله:(مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ):حيث جاء{بِمِنْ}لاستغراق النفي لكل الأفراد. ونكَّر لفظ:{بشير ونذير} لتأكيد الاستغراق في النفي.(وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ): والله – سبحانه وتعالى– هو القادر على كل شيءٍ. فهو– لذلك – يَقْدِر على ثواب من أَطاعه، وعقاب من عصاه(١).

أما قوله – تعالى–:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[الأعراف:١٨٨]، والنذير: مبالغةً في الإنذار بالعقاب على فعل المعاصي وترك الواجبات، والبشير: مبالغةً في البشارة بالثواب على فعل الواجبات وترك المعاصي وقوله:(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فيه قولان: أحدهما: أنه نذيرٌ وبشيرٌ للمؤمنين والكافرين إلا أنه ذكر إحدى الطائفتين وترك ذكر الثانية لأن ذكر إحداهما، يفيد ذكر الأخرى كقوله:(سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[النحل: ٨١](٢).

والثاني: أنه–ﷺ– وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكل إلا أن المنتفع بتلك النذارة والبشارة هم المؤمنون. فلهذا السبب خصهم الله بالذكر، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله – تعالى–:(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[البقرة: ٢](٣). وقيل حذف متعلق النذارة ودل على حذفه إثبات مقابله والتقدير: نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يؤمنون، كما حذف المعطوف في قوله:(سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[النحل: ٨١]أي: والبرد وبدأ

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث بالأزهر، م٢: ١٠٤٤.

(٢) مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين اليمني الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ١٥: ٤٢٦، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

(٣) المرجع السابق، ١٥: ٤٢٦.

بالنذارة؛ لأنّ السائلين عن الساعة كانوا كفارًا إما مشركو قريش وإما اليهود فكان الاهتمام بذكر الوصف من قوله:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ) آكد وأولى بالتقديم والله – تعالى– أعلم(١).

وهذا بيانٌ مستأنفٌ لتعليل ما تقدم من نفي امتيازه –ﷺ– على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق – ونفي امتيازه عليهم بعلم الغيب، علّلها ببيان حصر امتيازه عليهم بالتبليغ عن الله– عز وجل– (٢).

والتبليغ قسمان: قسمٌ مقترنٌ بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو الإنذار، وقسمٌ مقترنٌ بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة، وهو البشارة أو التبشير، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الإطلاق والآيات فيه كثيرة، ويوجه أيضا إلى من يؤمن، وإلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقًا، وإذا ذكر الفريقان جميعًا في سياقٍ واحدٍ يخص الكافرون بالإنذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير، وقد ذكر في أول سورة الكهف الإنذار المطلق بالقرآن، ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإنذار متخذي الولد لله– تعالى– من الكافرين(٣).

وهو ارتقاءٌ في التبرؤ من معرفة الغيب ومن التصرف في العالم، وزيادةٌ من التعليم للأمة بشيءٍ من حقيقة الرسالة والنبوة، وتمييز ما هو من خصائصها عما ليس منها(٤). والجملة مستأنفة ابتدائية قصد من استئنافها الاهتمام بمضمونها، كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدمه مرتين في قوله:(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنَد رَبّى ...)[الأعراف:١٨٧]،(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنَد اللهِ)[الأعراف:

---

(١) البحر المحيط في التفسير، ٥: ٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن الحكيم[تفسير المنار]، تأليف/ محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني الحسيني، ٩: ٤٢٩، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٣) المرجع السابق، ٩: ٤٢٩.

(٤) التحرير والتنوير/٩: ٢٠٦.

١٨٧] للاهتمام باستقلال المقول، وأن لا يندرج في جملة المقول المحكي قبله، وخُصّ هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول - ﷺ- نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة، إعلانًا للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعنٍ في نبوته حتى يستيئسوا من تحديه بذلك، وإعلامًا للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسه معرفة أحواله المغيبة، فضلًا على معرفة المغيبات من أحوال غيره إلا ما شاء الله[١]. ففي:{تفسير البغوي}عن ابن عباس: أن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها إلى التي قد أخصبت، فأنزل الله- تعالى-:(قُلْ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ اللهُ)[الأعراف:١٨٨] فيكون هذا من جملة ما توركوا به مثل السؤال عن الساعة، وقد جمع رد القولين في قولٍ[٢].

ومعنى الملك: هنا الاستطاعة والتمكن، وقد تقدم بيانه عند قوله- تعالى- :(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)[المائدة: ٧٦]، والمقصود منه هنا: ما يشمل العلم بالنفع والضر؛ لأنّ المقام لنفي معرفة الغيب، ولأن العلم بالشيء هو موجب توجه النفس إلى عمله. وقدّم النفع في الذكر هنا على الضر؛ لأنّ النفعَ أحب إلى الإنسان، وعكس في آية المائدة؛ لأنّ المقصود تهوين أمر معبوداتهم وأنها لا يخشى غضبها[٣].

وإنما عطف قوله:(وَلَا ضَرًّا) مع أن المرء لا يتطلب إضرار نفسه لأن المقصود تعميم الأحوال إذ لا تعدو أحوال الإنسان عن نافعٍ وضارٍ، فصار ذكر هذين الضدين مثل ذكر المساء والصباح وذكر الليل والنهار والشر والخير وسيأتي مزيد بيان لهذا عند قوله- تعالى-:(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) [الفرقان:٣]، وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعًا أو ضرًّا مقدمة لنفي العلم بالغيب؛

(١) التحرير والتنوير، ٩: ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق، ٩: ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق،٩: ٢٠٧.

لأن غاية الناس من التطلع إلى معرفة الغيب هو الإسراع إلى الخيرات المستقبلة بتهيئة أسبابها وتقريبها، وإلى التجنب لمواقع الأضرار، فنفي أن يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، يعم سائر أنواع الملك وسائر أنواع النفع والضر، ومن جملة ذلك العموم ما يكون منه في المستقبل وهو من الغيب(١).

وجملة:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) من تمام القول المأمور به، وهي مستأنفة استئنافًا بيانيًا ناشئًا عن التبرؤ من أن يملك لنفسه نفعًا أو ضرًّا لأن السامعين يتوهمون ما نفاه عن نفسه أخص صفات النبي فمن شأنهم أن يتعجبوا من نفيه ذلك عن نفسه وهو يقول إنه رسول الله إليهم، ويسألوا عن عمله ما هو بعد أن نفى عنه ما نفى، فبين لهم أن الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات(٢).

وإنما قدّم وصف النذير على وصف البشير هنا؛ لأنّ المقام خطاب المكذبين المشركين، فالنذارة أعلق بهم من البشارة. وقوله:(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يتنازع تعلقه كل من نذير وبشير؛ لأنّ الانتفاع بالأمرين يختص بالذين تهيئوا إلى الإيمان بأن يتأملوا في الآيات وينهوا من أنفسهم ويقولوا الحق على آبائهم، دون الذين جعلوا دينهم التكذيب والإعراض والمكابرة، فالمضارع مراد به الحال والاستقبال كما هو شأنه، ليشمل من تهيأ للإيمان حالًا ومآلًا، وأما شموله لمن آمنوا فيما مضى فهو بدلالة فحوى الخطاب إذ هم أولى، وهذا على حد قوله- تعالى-:(إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا)[النازعات: ٤٥](٣).

وفي نظم الكلام على هذا الأسلوب من التنازع، وإيلاء وصف(البشير) ب(قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ،إيهام أن البشارة خاصةٌ بالمؤمنين، وأن متعلق النذارة المتروك ذكره في النظم هو لأضداد المؤمنين، أي: المشركين، وهذا المعنى مقصود على نحو قوله- تعالى-:(لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحسِنِينَ)[الأحقاف: ١٢] . وهذه

(١) التحرير والتنوير، ٩: ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق، ٩: ٢٠٨.

(٣) المرجع السابق، ٩: ٢٠٨.

المعاني المستتبعات مقصودةٌ من القرآن، وهي من وجوه إعجازه لأن فيها استفادة معانٍ وافرةٍ من ألفاظٍ وجيزةٍ [١]. وإنما ينتفع بالبلاغ المحمدي بالإنذار والتبشير – المؤمنون–، فهم الذين يخافون عذابه إن أنذروا، ويجيبون نداءه ويستبشرون برحمته إن أطاعوا، والله– سبحانه– هو الهادي إلى سواء السبيل[٢].

ثم بيّن القرآنُ الكريمُ وظيفة الرسول–ﷺ– في قوله:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[الأعراف: ١٨٨] أي: ما أنا إلا عبدٌ أرسلنى الله نذيرًا وبشيرًا، وليس من مهمتي أو وظيفتي معرفة علم الغيب. وقوله:(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يجوز أن يتعلق بقوله:(نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) جميعًا؛ لأنّ المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير، ويجوز أن يتعلق بقوله:(بَشِيرٌ) وحده، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أي: للكافرين. وحُذف للعلم به[٣].

وبهذا الإعلان من جانب الرسول– ﷺ– للناس عن وظيفته تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق من الشرك في أية صورة من صوره، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها فيها بشر ولو كان هذا البشر محمدًا–ﷺ– فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشرى، وتقف القدرة البشرية، إذ علم الغيب إنما هو لله الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء[٤]. و(إن) هنا في قوله:(إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ) هي النافية، والمعنى: ما أنا. وهذا القصر قصرٌ إضافيٌ{إِلاَّ نَذِيرٌ}، والبشارة: في لغة العرب أكثر ما تطلق على الإخبار بما يسرّ، فَبَشَّرَه وبَشَرَه معناه: أَخْبَرَهُ بما يسره. قال بعض العلماء:

(١) التحرير والتنوير، ٩: ٢٠٩.

(٢) زهرة التفاسير، ٦: ٣٠٢٧.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،٥: ٤٥١.

(٤) المرجع السابق، ٥: ٤٥١.

قيل لها بشارة؛ لأنّ السرور تظهر به حركة الدم فيظهر على بشرة الوجه آثار السرور، وربما أطلقت العرب البشارة على الإخبار بما يسوء[1].

أما قوله- تعالى- في سورة هود:(إِنَّنِى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)[هود:٢]: أي: من عقابه وبثوابه، وإذا أطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه ، والبشارة في المحبوب، وقدم النذير؛ لأنّ التحذير من النار هو الأهم وأَنِ معطوفة على التي قبلها[2].

ثم قال:(إِنَّنِى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ): وفيه مباحث:

المبحث الأول: أن الضمير في قوله:(مّنْهُ) عائدٌ إلى الحكيم الخبير، والمعنى: إنني لكم نذيرٌ وبشيرٌ من جهته. المبحث الثاني: أن قوله:(أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللهَ) مشتملٌ على المنع عن عبادة غير الله، وعلى الترغيب في عبادة الله –تعالى–، فهو–ﷻ– نذيرٌ على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشيرٌ على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها. واعلم أنه–ﷻ– ما بُعث إلا لهذين الأمرين، وهو الإنذار على فعل ما لا ينبغي، والبشارة على فعل ما ينبغي[3].

وقوله:(إِنَّنِى لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) كلامٌ على لسان الرسول– ﷺ– وقوله:(مّنْهُ) إما حال من نذير وبشير: أي كائنًا من جهة الله– تعالى–، أو متعلقٌ بنذيرٍ: أي: أنذركم من عذابه إن كفرتم أي بقيتم على الكفر وعبادة غير الله –تعالى–، وأبشركم بثوابه إن أمنتم، وتقديم النذير؛ لأنّ التخويف هو الأهم إذ

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تأليف/ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، ٤: ٣٨٦– ٣٨٧، ط: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ه.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف/ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطيه الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٣: ١٤٩، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

(٣) مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ١٧: ٣١٤– ٣١٥.

التخلية قبل التحلية[١]. وهو تبليغٌ لدعوة الرسالة مبينٌ لوظيفة الرسول، وهي إنذار من أصر على شركه وما يتبعه من الكفر والمعاصي بالعذاب الأليم، وتبشير من آمن واتقى بالسعادة والنعيم المقيم، وقدم الإنذار؛ لأنّ الخطاب وجه أولًا إلى المشركين كنظيره في سورة يونس وأمثالهما من السور المكية كسورة الكهف، والمبلغ هذا هو النبي – ﷺ-[٢].

وجملة:(إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) معترضة بين جملة:(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ)[هود:٢] وجملة:(وَأَنِ اسْتَغْفُرُوا رَبَّكُمْ)[هود:٣] الآية، وهو اعتراضٌ للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثاله[٣]. ووقوع هذا الاعتراض عقب الجملة الأولى التي هي من الآيات المحكمات إشعارٌ بأن مضمونه من الآيات المحكمات، وإن لم تكن الجملة تفسيرية، وذلك؛ لأن شأن الاعتراض أن يكون مناسبًا لما وقع بعده وناشئًا منه فإن مضمون البشير والنذير هو جامع عمل الرسول- ﷺ- في رسالته فهو بشيرٌ لمن آمن وأطاع، ونذيرٌ لمن أعرض وعصى، وذلك أيضًا جامع للأصول المتعلقة بالرسالة وأحوال الرسل وما أخبروا به من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية وهذا عين الإحكام[٤].

و(من) في قوله:(إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ) ابتدائية، أي إني نذير وبشير لكم جائيًا من عند الله. والجمع بين النذارة والبشارة لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله بطريق النهي وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول، والبشارة ترجع إلى الجزء الثاني[٥].

---

(١) روح البيان، تأليف/ إسماعيل حقي بن مصطفي الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء، ٤: ٩١، ط: دار الفكر، بيروت،[د ت].

(٢) تفسير القرآن الحكيم[تفسير المنار]،١٢: ٧.

(٣) التحرير والتنوير، ١١: ٣١٦.

(٤) المرجع السابق، ١١: ٣١٦.

(٥) المرجع السابق،١١: ٣١٦.

والنفي والإثبات في قوله:(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)[هود:٢] دليلٌ على قصر العبادة على اللَّه وحده لا يعبدون غيره من أوثانٍ أو أشخاصٍ أو أي كائنٍ من مخلوقاته- سبحانه وتعالى-. أي: أن اللَّه – تعالى- أحكم القرآن وفصل آياته تفصيلًا، وأقام فيه الدلائل القاطعة على أنه الخالق لتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا(١).

ثم يقول- تعالى- حاكيًا عن قول نبيه -ﷺ-:(إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) لمن عصى وأشرك أنذره بالسعير،(وَبَشِيرٌ) لمن آمن باللَّه- تعالى- وحده وكلل إيمانه بطاعة الله فيما أمر به من طاعاتٍ فيها خير الدنيا والآخرة، وفيما نهى عنه من معاصٍ فيها فساد في الأرض وعذاب في الآخرة، والضمير في كلمة (مِّنْهُ) يعود على الله- تعالى-. ويأتي ذكر النذير البشير – ﷺ- بعد عبادة الله- تعالى – وحده، إيماءٌ بأنّ القرآن الكريم قد أحكمت آياته وفصلت ليكون آية النبوة ومعجزة الرسالة المحمدية الخالدة إلى يوم الدين. فالقرآنُ الكريمُ هو البرهانُ لعبادة اللَّه وحده، وهو معجزة النبي – ﷺ-، تلك المعجزة الكبرى التي لا تدانيها في بقائها وثمراتها معجزة أخرى من معجزات النبيين قبله – ﷺ-(٢).

فقول الحق- سبحانه وتعالى-:(أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللَّهَ)[هود: ٢]. فيه نفيٌ لعبادة غير الله، وإثباتٌ لعبودية الله – تعالى-. وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة؛ لأنّ عبادة غير الله تقتضي نذيرًا، وعبادة الله في الإسلام تقتضي بشيرًا(٣).

وجملة:(أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللَّهَ) جملةٌ تعليليةٌ، أي: أنه- سبحانه- فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيمٍ خبيرٍ، لكي تخلصوا له العبادة

(١) زهرة التفاسير،٧: ٣٦٦١.

(٢) المرجع السابق،٧: ٣٦٦١.

(٣) تفسير الشعراوي[الخواطر]، تأليف/ محمد متولى الشعراوي، ١٠: ٦٣٠٦- ٦٣٠٧، ط: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

والطاعة، وتتركوا عبادة غيره لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة[١].

وقوله:(إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)[هود: ٢] هو بيانٌ لوظيفة الرسول-ﷺ-. والضمير المجرور في(مِّنْهُ) يعود على الله- تعالى- أي: عليكم- أيها الناس- أن تخلصوا لله- تعالى- العبادة والطاعة، فإنه- سبحانه- قد أرسلني إليكم لكي أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة. وقدّم- سبحانه- الإنذار على التبشير؛ لأنّ الخطاب موجهٌ إلى الكافرين، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى[٢].

وهنا على مدار تلك الآيات التي وصفت الحبيب المصطفي-ﷺ- بالبشير النذير، نجد أن القرآن الكريم انتقى لفظتي[بشير ونذير] دون غيرها من الألفاظ الأخري؛ وذلك ليؤكد أن مهمة الرسول-ﷺ- هو التبشير بالثواب العظيم، والخير الجزيل، وإدخال الفرح والسرور والطمأنينة علي كل نفسٍ مؤمنةٍ أطاعت ربها ورسوله-ﷺ-، وفي ذلك تحفيزٌ للنفس من الإكثار من فعل الطاعات، والتقرب إلي الله- تعالى- بالصالحات، كذلك أيضًا من مهام النبي-ﷺ- الإنذار والتخويف لمن عصي الله ورسوله؛ وذلك ليرتدع صاحب الذنب والإثم، فيقلع عنه معلنًا توبته،[فبشرت] الرجل أَبْشُرُهُ بالضم بَشْراً وبُشوراً، من البُشرى. وكذلك الإِبْشارُ والتَبْشيرُ، ثلاثُ لغاتٍ والاسمُ البِشارَةُ. والبُشارَةُ، بالضم والسكر. يقال: بشرته بمولودٍ فأبشر إبشارًا، أي سُرَّ[٣]. و[نذر]:الْإِنْذَارُ: الْإِبْلَاغُ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي التَّخْوِيفِ، وَالِاسْمُ [النُّذُرُ] بِضَمَّتَيْنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ- تَعَالَى-:(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٧: ١٥٨.

(٢) المرجع السابق، ٧: ١٥٨.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف/ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مادة[ب ش ر]، ط: دار العلم للملايين، بيروت،[د ت].

وَنُذُرِ)[القمر: ١٦] أَيْ: إِنْذَارِي. وَ (النَّذِيرُ الْمُنْذِرُ) وَ(الْإِنْذَارُ) أَيْضًا[1]. كذلك أيضًا نلحظ في بعض المواضع تقديم صفة[التبشير] علي[الإنذار]؛ وذلك عندما يكون الخطاب موجه للمؤمنين فيقدم التبشير على الإنذار ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم فيستحقوا الفوز العظيم والنصر المبين. أمّا في حالة تقديم[الإنذار]علي[التبشير] فيكون الخطاب موجه للمشركين الكافرين حتي يعودوا لرشدهم وصوابهم.

(١) مختار الصحاح، تأليف/ زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، مادة:[ن ذ ر]، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

المبحث الثاني

وصفه - ﷺ - بالشهيد

وصف القرآنُ الكريمُ النبيَّ محمدًا -ﷺ- بالشهيدِ في مواضع عدة، وقد ورد في معجم لسان العرب، أنّ: "الشهيد: مِنْ أَسماء اللَّهِ -عَزَّ وجَلَّ-. قَالَ أَبو إِسحق: "الشَّهيدُ مِنْ أَسماء اللَّهِ الأَمين فِي شَهَادَتِهِ. قَالَ: وَقِيلَ الشهيدُ الَّذِي لَا يَغيب عَنْ عِلْمه شَيْءٌ. والشهيد: الْحَاضِرُ. وفَعِيلٌ مِنْ أَبنية الْمُبَالغَةِ فِي فَاعِلٍ فإِذا اعْتُبِرَ العِلم مُطْلَقًا، فَهُوَ العليم، وإِذا أُضيف فِي الأُمور الْبَاطِنَةِ، فَهُوَ الْخَبِيرُ، وإِذا أُضيف إِلى الأُمور الظَّاهِرَةِ، فَهُوَ الشَّهيدُ، وَقَدْ يُعْتَبَرُ مَعَ هَذَا أَن يَشْهَدَ عَلَى الْخَلْق يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ- عَزَّ وَجَلَّ-:(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً)[الفتح:٨]؛ أَي: عَلَى أُمتك بِالإِبْلاغ وَالرِّسَالَةِ، وَقِيلَ: مُبَيِّناً. وَقَوْلُهُ:(وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً)[القصص:٧٥]؛ أَي: اخْتَرْنا مِنْهَا نَبِيًّا، وكلُّ نَبِيٍّ شَهِيدُ أُمَّتِه"(١).

والنبي -ﷺ- وصفه ربه في كتابه الكريم بالشهيد. ففي الآية الأولي قال- تعالى-:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[البقرة:١٤٣] ، وصف اللهُ- سبحانه وتعالى- هذه الأمة بالشهادة، وهذه الشهادة: إما أن تكون في الآخرة أو الدنيا، ولا جائز أن تكون في الآخرة؛ لأنّ اللهَ - تعالى - جعلهم عدولًا في الدنيا لأجل أن يكونوا شهداء، وذلك يقتضي أن يكونوا شهداء في الدنيا(٢).

فإن قيل: تحمُّل الشهادة لا يحصل إلا في الدنيا، ومتحمّل الشهادة قد يسمى شاهدًا، وإن كان الأداء لا يحصل إلا في القيامة. وإنما قلنا: إنه - تعالى - جعلهم عدولًا في الدنيا؛ لأنه - تعالى- قال: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) وهذا إخبارٌ عن الماضي، فلا أقل من حصوله في الحال، وإنما قلنا: إن ذلك يقتضي صيرورتهم

---

(١) لسان العرب، ٢٣٨- ٢٤٠.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص سراج الدين عمر بن على بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، ٣: ١٨- ١٩، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه- ١٩٩٨م.

شهودًا في الدنيا؛ لأنه- تعالى- قال:(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ) رتب كونهم شهداء على صيرورتهم وسطًا ترتيب الجزاء على الشرط، فإذا حصل وصف كونهم وسطًا في الدنيا وجب أن يحصل وصف كونهم شهداء في الدنيا. فإن قيل: تحمُّل الشهادة لا يحصل إلا في الدنيا، ومتحمّل الشهادة قد يسمى شاهدًا، وإن كان الأداء لا يحصل إلا في القيامة[1].

قلنا: الشهادة المعتبرة في الآية لا التحمل، بدليل أنه – تعالى – اعتبر العدالة في هذه الشهادة، والشهادة التي تعتبر فيها العدالة، هي الأداء لا التحمّل، فثبت أن الآية تقتضي كون الأمة مؤدّين للشهادة في الدنيا، وذلك يقتضي أن يكون مجموع الأمة إذا أخبروا عن شيء أن يكون قولهم حجّة، ولا معنى لقولنا: الإجماع حجة إلا هذا، فثبت أن الآية تدل على أن الإجماع حجّة من هذا الوجه أيضًا. واعلم أن هذا الدليل لا ينافي كونهم شهودًا في القيامة أيضًا على الوجه الذى وردت الأخبار به، ويؤيد ذلك قوله- تعالى-:(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) يعني مؤديًا ومبينًا، ثم لا يمتنع أن تحصل مع ذلك لهم الشَّهادة في الآخرة، فيجري الواقع منهم في الدنيا مجرى التحمّل، لأنّهم إذا أثبتوا الحقّ عرفوا عنده من[القابل ومن الراد]، ثم يشهدون بذلك يوم القيامة[على أن الشَّاهد على العقود يعرف الذى تم، والذى لم يتم، ثم يشهدون بذلك عند الحاكم][2].

قال القرطبي – رَحِمَهُ اللهُ-: معنى قوله- تعالى-: "(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)أي: بأعمالكم يوم القيامة، وقيل:{عليكم} بمعنى لكم أي: يشهد لكم بالإيمان. وقيل: يشهد عليكم بالتبليغ لكم"[3].

فقوله- تعالى-:(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ) توجيهٌ للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول -ﷺ- لتأييد ما في مضمون الكلام من التشريف

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٣: ١٨- ١٩.

(٢) المرجع السابق، ٣: ١٨- ١٩.

(٣) المرجع السابق، ٣: ١٩.

وذلك إشارةٌ إلى مصدرِ{جَعَلْنَاكُمْ}[١] لا إلى جعل آخرَ مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيدُ الكاف مع القصد إلى المؤمنين لِما أن المرادَ مجردُ الفَرْق بين الحاضرِ والمنقضِي دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المُشَارِ إليهِ وبُعْدِ منزلتِه في الفضل وكمال تميزه وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة والكافُ لتأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة. ومحلُها في الأصلِ النصبُ على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ وأصل التقدير: جعلناكم أمة وسَطًا جَعْلًا كائنًا مثل ذلك الجعلِ فقُدّم على الفعلِ لإفادةِ القصرِ[٢].

(لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ) بأن الله- عز وجل- قد أوضح السبُل وأرسل الرُسل فبلّغوا ونصَحوا وذكّروا فهل من مُدَكِّرٍ وهي غاية للجعل المذكور مترتبةٌ عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث كانت هي الكيفيةُ المتشابهةُ المتألّفةُ من العفة التي هي فضيلةُ القوة الشَّهْوية البهيمية والشجاعة التي هي فضيلةُ القوةِ الغضبيةِ السَّبُعية والحكمة التي هي فضيلةُ القوةِ العقلية المَلَكية المشارِ إلى رتبتها بقوله- عز وعلا-:(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[البقرة:٢٦٩] كان المتّصِفُ بها واقفًا على الحقائق المودَعةِ في الكتاب المبين المنطوي على أحكام الدين وأحوالِ الأممِ أجمعين حاويًا لشرائط الشهادةَ عليهم رُوي أن الأممَ يوم القيامة يجحدون تبليغَ الأنبياءِ عليهم السلام فيطالبهم الله – تعالى- بالبينة وهو أعلم إقامةً للحجة على المنكرين وزيادةً لخِزْيهم بأن كذَّبهم مَنْ بعدهم من الأمم فيؤتى بأمةِ محمدٍ-ﷺ- فيشهدون فيقول الأممُ من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله- تعالى- في كتابه الناطق على لسان نبيِّه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبي – ﷺ – ويُسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف/ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ١: ١٧١- ١٧٢، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت،[د ت].

(٢) المرجع السابق، ١: ١٧١- ١٧٢.

(٣) المرجع السابق، ١: ١٧٢.

وذلك قولُه – عز وجل- قائلًا:(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) وكلمةُ الاستعلاءِ لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمِن وقيل: لتكونوا شهداءَ على الناس في الدنيا فيما لا يُقبل فيه الشهادةُ إلا من العدول الأخيار وتقديم الظرف لدلالة على اختصاص شهادتِه- عليه السلام- بهم(١).

فقد شهد الحقُّ – تعالى- لهذه الأمة بالعدالة والفضل فقال:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[البقرة:١٤٣]، قلتُ:(الوسط) هو العدل الخيّر الفاضل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستويًّا فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوي(٢).

يقول الحقُّ- جلّ جلاله-:" وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل الجهات، جعلناكم أمة أفضل الأمم، خيارًا عدولًا مزكّين بالعلم والعمل، لتصلحوا للشهادة على غيركم، فتكونوا يوم القيامة شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم"(٣).

قال البيضاوي: "رُوِيَ أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيُطالبُهم الله ببينة التبليغ وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيُؤتَى بأمة محمدٍ – ﷺ- فيشهدُون، فتقُول الأمم: مِنْ أَيْنَ عرفتُمْ؟ فيقولُون: عَلِمْنَا ذلك بإخْبَار الله في

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ،١ : ١٧٣.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف/ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ١: ١١٠ ، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤١٨ه.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تأليف/ أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ١: ١٧٤، سنة:١٤١٩ه.

كِتَابِهِ النَّاطِقِ عَلَى لسانِ نبيه الصَّادِقِ. فيُؤتى بمحمَّدٍ- ﷺ- فَيُسألُ عن حَالِ أُمتـه فَيشْهَدُ بعَدَالتِهِمْ"[١]. وهذه الشهادة وإن كانت لهم، لكن لمّا كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عُدّيِ بِعَلَى، وقُدِّمت الصلة للدلالة علـى اختصاصـهم بكـون الرسول شهيدًا عليهم[٢].

فقوله:(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَآءَ عَلَـى النَّـاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[البقرة:١٤٣]، هذه الجملة معترضة بـين جملة:(سَـيَقُولُ السُّفَهَآءُ) [البقرة: ١٤٢]إلخ وجملة:(وَمَا جَعَلْنَـا الْقِبْلَـةَ التَّـى كُنـتَ عَلَيْهَـآ) [البقرة:١٤٣]إلخ، والواو اعتراضية وهي من قبيل الـواو الاسـتئنافية، فالآيـة السابقة لما أشارت إلى أن الذين هدوا إلى صراطٍ مستقيمٍ هم المسلمون وأن ذلك فضل لهم ناسب أن يستطرد لذكر فضيلة أخرى لهم هي خير ممـا تقـدم وهـي فضيلة كون المسلمين عدولًا خيارًا ليشهدوا على الأمم لأن الآيات الواقعة بعـدها هي في ذكر أمر القبلة وهذه الآية لا تتعلق بأمر القبلة[٣].

وقوله:(وَكَذَٰلِكَ): مركبٌ من كاف التشبيه واسم الإشـارة فيتعـين تعـرف المشار إليه وما هو المشبه به قال صاحب[الكشاف]: "أي مثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم أمة وسطا" فاختلف شارحوه في تقريـر كلامـه وتبـين مـراده، فقـال البيضاوي: "الإشارة إلى المفهوم أي ما فهم من قوله:(يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[البقرة: ١٤٢] أي: كما جعلناكم أمة وسطًا أو كما جعلنا قبلتكم أفضل قبلة جعلناكم أمة وسطًا"[٤].

وقوله:(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) معطوفٌ على العلة وليس علة ثانيـة لأنه ليس مقصودًا بالذات بل هو تكميلٌ للشهادة الأولى لأن جعلنا وسطا يناسـبه عدم الاحتياج إلى الشهادة لنا وانتفاء الشهادة علينـا، فأمـا الدنيويـة فشـهادة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ١: ١١١.

(٢) المرجع السابق، ١: ١١١.

(٣) التحرير والتنوير،٢: ١٤- ١٥.

(٤) المرجع السابق،٢: ١٤- ١٥.

الرسول علينا فيها هي شهادته بذاته على معاصريه وشهادة شرعه على الذين أتوا بعده إنما بوفائهم ما أوجبه عليهم شرعه وإما بعكس ذلك، وأما الأخروية فهي ما روي في الحديث المتقدم من شهادة الرسول بصدق الأمة فيما شهدت به(١)، وما رُوي في الحديث الآخر، حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- ﷺ-: "أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا أَبْصَرْتُ أَنْ لَا يَرِدَ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ". قَالَ فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ أُحَدِّثُ بِهِ فَقَالَ: وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَزِيدُ فِيهِ فَيَقُولُ: وَأَقُولُ: "إِنَّهُمْ أُمَّتِي، أَوْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، أَوْ مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا. سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي"(٢).

وتعدية شهادة الرسول على الأمة بحرف[على] مشاكلة لقوله قبله:(لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ) وإلا فإنها شهادة للأمة وقيل بل لتضمين شهيدًا معنى رقيبًا ومهيمنًا في الموضعين كما في{الكشاف}(٣). وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضي إلا بعد حصولها(٤). ويؤخذ من الآية: أن الشاهد شهيدٌ بما حصل له من العلم وإن لم يشهده المشهود عليه وأنه يشهد على العلم بالسماع والأدلة القاطعة وإن لم ير بعينهأو يسمع بأذنيه،وأن التزكية أصل عظيم في الشهادة، وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكى،وأن المزكى لايحتاج للتزكية،وأن الأمة لا تشهد على النبي-

(١) التحرير والتنوير،٢- ٢١.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف/ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ٣٧: ٥١٤، حديث رقم: ٢٢٨٧٣، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١ه- ٢٠٠١م.

(٣) التحرير والتنوير، ٢: ٢١.

(٤) المرجع السابق، ٢: ٢١.

ﷺ- ولهذا كان يقول في حجة الوداع:{ألا هل بلغت فيقولون نعم فيقول اللهم اشهد} فجعل الله هو الشاهد على تبليغه وهذا من أدق النكت(١).

وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلا لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وقد يكون تقديمه لتكون الكلمة التي تختم بها الآية في محل الوقف كلمةٌ ذات حرف مد قبل الحرف الأخير؛ لأنّ المد أمكن للوقف وهذا من بدائع فصاحة القرآن، وقيل تقديم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف ومثله غير معهود في كلامهم(٢).

فقوله:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...)الآية. هذا خطابٌ من الله للمؤمنين، لتشريفهم بوصفهم بالعدالة، ليكونوا شهداء على الناس، بعدما وصف الكفار والمنافقين بالسفه والاستهزاء على تحويل القبلة. وبضدها تتميز الأشياء(٣). أي: وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى صراط مستقيم، بتوليتكم القبلة التي ترضونها، جعلناكم عدولًا أخيارًا، تضُمّون إلى الإيمان والعلم والعمل، فكنتم - بذلك - خير أُمة أُخرجت للناس. (لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) بأن الرسل بلغوهم عن الله، ونصحوهم، ولم تَعُدْ لهم حجة على الله بعد مجيء الرسل، وإنما يشهدون بذلك وهم لم يروا شيئًا، لأنهم يشهدون اعتمادًا على شهادة القرآن، والقرآن كلام الله، فهم يشهدون بشهادة الله – تعالى-.(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا): بأن ما قلتموه هو الحق، لأن المصدر واحد للجميع، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢: ٢١.

(٢) المرجع السابق، ٢: ٢٢.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١: ٢١٤.

(٤) المرجع السابق، ١: ٢١٤.

أما قوله – تعالى–:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا)[النساء:٤١]، الفاء: يجوز أن تكون فاء فصيحة تدلُ على شرطٍ مقدرٍ نشأ عن الوعيد في قوله:(وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)[النساء: ٣٧] وقوله:(فَسَآءَ قَرِينًا)[النساء: ٣٨] وعن التوبيخ في قوله:(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ)[النساء: ٣٩] وعن الوعد في قوله:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)[النساء: ٤٠] الآية، والتقدير: إذا أيقنت بذلك فكيف حال كل أولئك إذا جاء الشهداء وظهر موجب الشهادة على العمل الصالح وعلى العمل السيء، وعلى هذا فليس ضمير(بِكَ) إضمارًا في مقام الإظهار، ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على قوله:(إِنَّ اللَّه لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)[النساء: ٤٠]، أي: يتفرع عن ذلك سؤال عن حال الناس إذا جئنا من كل أمة بشهيد فالناس بين مستبشر ومتحسر، وعلى هذا فضمير(بِكَ) واقعٌ موقع الاسم الظاهر لأن مقتضى هذا أن يكون الكلام مسوقًا لجميع الأمة، فيقتضي أن يقال: وجئنا بالرسول عليهم شهيدًا، فعدل إلى الخطاب تشريفًا للرسول – ﷺ– بعز الحضور والإقبال عليه(١).

والحالة التي دلَّ عليها الاستفهام المستعمل في التعجيب تؤذن بحالة مهولة للمشركين وتنادي على حيرتهم ومحاولتهم التملص من العقاب بسلوك طريق إنكار أن يكونوا أنذروا مما دل عليه مجيء شهيد عليهم، ولذلك حذف المبتدأ المستفهم عنه ويقدر بنحو: كيف أولئك، أو كيف المشهد، ولا يقدر بكيف حالهم خاصة، إذ هي أحوالٌ كثيرةٌ ما منها إلا يزيده حال ضده وضوحا، فالناجي يزداد سرورًا بمشاهدة حال ضده، والموبق يزداد تحسرًا بمشاهدة حال ضده، والكل يقوى يقينه بما حصل له بشهادة الصادقين له أو عليه(٢)، ولذلك لما ذكر الشهيد لم يذكر معه متعلقه بعلى أو اللام: ليعم الأمرين. والاستفهام مستعملٌ في لازم معناه من التعجيب، وقد تقدم نظيره عند قوله – تعالى–:(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ) في

(١) التحرير والتنوير،٥: ٥٦.

(٢) المرجع السابق،٥: ٥٦.

سورة آل عمران[٢٥][١]. و(إذا): ظرفٌ للمستقبل مضاف إلى جملة جئنا أي: زمان إتياننا بشهيدٍ. ومضمون الجملة معلومٌ من آيات أخرى تقدم نزولها مثل آية سورة النحل[٨٩](وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَآءِ)، فلذلك صلحت لأن يتعرف اسم الزمان بإضافته إلى تلك الجملة، والظرف معمول ل(كَيْفَ) لما فيها من معنى الفعل وهو معنى التعجيب. والمجروران في قوله:(مِن كُلِّ أُمَّةٍ) وقوله:(بِشَهِيدٍ) يتعلقان ب(جِئْنَا). وقد تقدم الكلام مختصرًا على نظيره في قوله- تعالى-:(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيه)[آل عمران: ٢٥][٢].

وشهيدُ كل أمةٍ هو رسولها بقرينة قوله:(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا)[النساء:٤١]. و{هَؤُلَآءِ}: إشارةٌ إلى الذين دعاهم النبي- ﷺ- لحضورهم في ذهن السامع عند سماعه اسم الإشارة، وأصل الإشارة يكون إلى مشاهد في الوجود أو منزل منزلته، وقد اصطلح القرآن على إطلاق إشارة(هَؤُلَآءِ) مرادًا بها المشركون، وهذا معنى ألهمنا إليه، استقريناه فكان مطابقا. ويجوز أن تكون الإشارة إلى:(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)[النساء: ٣٧] وهم المشركون والمنافقون، لأن تقدم ذكرهم يجعلهم كالحاضرين فيشار إليهم، لأنهم لكثرة توبيخهم ومجادلتهم صاروا كالمعينين عند المسلمين. ومن أضعف الاحتمالات أن يكون هؤلاء إشارة إلى الشهداء، الدال عليهم قوله:(كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) وإن ورد في[الصحيح] حديثٌ يناسبه في شهادة نوح على قومه وأنهم يكذبونه، فيشهد محمدٌ- ﷺ- بصدقه، إذ ليس يلزم أن يكون ذلك المقصود من هذه الآية[٣]. وذكر متعلق(شَهِيدًا) الثاني مجرورًا {بعلى} لتهديد الكافرين بأن الشهادة تكون عليهم، لأنهم المقصود من اسم الإشارة [٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٥: ٥٧.

(٢) المرجع السابق، ٥: ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ٥: ٥٧.

(٤) المرجع السابق، ٥: ٥٨.

وفي[صحيح البخاري]:أن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ- ﷺ-: "اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ"، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي"(١).

فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى إذا بلغت:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا)[النساء:٤١]، قال: أمسك فإذا عيناه تذرفان. وكما قلت: إنه أوجز في التعبير عن تلك الحال في لفظ كيف فكذلك أقول هنا: لا فعل أجمع دلالة على مجموع الشعور عند هذه الحالة من بكاء رسول الله- ﷺ - فإنه دلالةٌ على شعور مجتمع فيه دلائل عظيمة: وهي المسرة بتشريف الله إياه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق المؤمنين إياه في التبليغ، ورؤية الخيرات التي أنجزت لهم بواسطته، والأسف على ما لحق بقية أمته من العذاب على تكذيبه، ومشاهدة ندمهم على معصيته، والبكاء ترجمان رحمة ومسرة وأسف وبهجة(٢).

والاستفهام هنا في قوله:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا) [النساء:٤١] هنا للتنبيه، وبيان ما سيكون يوم القيامة من حساب يتبعه عقابٌ عادلٌ، أو ثوابٌ يتبعه جزاءٌ سابغٌ وعطاءٌ غير ممنونٍ. والمعنى تنبهوا أيا هؤلاء الذين يجحدون الأدلة القائمة، والرسالات الثابتة، وتصوروا حالكم، وأعمالكم تنطق بها ألسنتكم وجوارحكم، ومعكم النبيون يشهدون عليكم بالتبليغ والبيان، وأنه لم يكن لكم حجةٌ في كفرٍ، ولا معذرةٌ في جحودٍ. والشهيد: هو الشاهد الناطق بالحق، المتحري المستقصي الذي لا يترك حقًا لم يبينه(٣).

ومعنى قوله- تعالى-:(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا) أنه يؤتى لكل أمة من الأمم بشهيد منها هو نبيها الذي بعث فيها ودعاها إلى الحق، فمنهم من آمن

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه= صحيح البخارى، ٦: ١٩٥، حديث رقم: ٥٠٤٩، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره.

(٢) التحرير والتنوير، ٥: ٥٨.

(٣) زهرة التفاسير، ٤: ١٦٨٧.

ومنهم من كفر، فكل نبي يشهد على قومه بالتبليغ والبيان. وما من أمةٍ إلا كان لها نذير، فقد قال – تعالى-:(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فيهَا نَذِيرٌ)[فاطر:٢٤]،وقال- تعالى-:(... وَمَا كنَّا مُعَذِّبينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[الإسراء:١٥] (١).

وقد اختلف في الإشارة في قوله- تعالى-:(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا)[النساء:٤١]، فقال بعض المفسرين: إن الإشارة في:{هَؤُلَآءِ} إلى النبيين السابقين، فالنبي -ﷺ- باعتباره خاتم النبيين، وأن رسالته خالدة إلى يوم القيامة، ولتكريم الله – تعالى- يكون شاهدًا على كل النبيين السابقين، والشهادة عليهم بمعنى أداء الشهادة بأنهم بلغوا، وكانت التعدية بعلى للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشرائع السابقة لاشتمال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصةٌ سائغةٌ واضحةٌ بينةٌ للأجيال(٢).

هذا هو القول الأول – والقول الثاني: أن المشار إليهم في النص الكريم هم أمة محمد – ﷺ-، وهي أكثر الأمم عددًا؛ لأنّ محمدًا – ﷺ- أكثر الأنبياء تابعًا؛ إذ دينه لم يحرف ولم يبدل، فقد حفظت أصوله في القرآن الكريم، وهو نور الله – تعالى- الباقي إلى يوم القيامة، كما قال- تعالى-:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:٩]، وإن الكثيرين على الأول، لأنّ النبي – ﷺ- شهادتان إحداهما: شهادته للرسالات السابقة بالصدق والبيان، وقد اطلع على هذه الشهادة المسلمون ببيان القرآن، والثانية: شهادته على أمته، وقد جمع الشهادتين قوله- تعالى-:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[البقرة:١٤٣]، وإن تلك منزلة عالية للنبي – ﷺ- والمؤمنين به إيمانًا صادقًا الذين يذعنون للحق دائمًا(٣).

ثم نبّه- سبحانه- هؤلاء الكافرين إلى ما يكونون عليه من حالٍ سيئةٍ يوم القيامة إذا استمروا في كفرهم فقال:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ

(١) زهرة التفاسير، ٤: ١٦٨٧.

(٢) المرجع السابق، ٤: ١٦٨٧.

(٣) المرجع السابق، ٤: ١٦٨٨.

عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً) [النساء:٤١: ٤٢][١].

قال الفخر الرازي: "وجه النظم هو أنّه- تعالى- بيّن أن في الآخرة لا يجرى على أحدٍ ظلم، وأنه- تعالى- يجازى المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه. فبين في هذه الآية- وهو قوله- تعالى-(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) أن ذلك يجرى بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على المسيء أبلغ. والتبكيت له أعظم. وحسرته أشد[٢]. ويكون سرور من قبل من الرسول وأظهر الطاعة أعظم. ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) ووعدًا للمطيعين الذين قال فيهم:(وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)"[النساء:٤٠][٣].

والفاء في قوله:(فَكَيْفَ) للإفصاح عن شرطٍ مقدرٍ نشأ من الكلام السابق و(كيف) في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: إذا أيقنت بما أخبرناك به أيها الرسول الكريم أو أيها السامع من أن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا فكيف يكون حال هؤلاء الكفرة إذا ما جئنا من كل أمة من الأمم السابقة بشهيدٍ يشهدُ عليهم بما ارتكبوه من سوء الصنيع وقبح الأعمال، وهذا الشهيد هو نبيهم الذي أرسله الله لهدايتهم، وجئنا بك يا محمدٌ شهيدًا على هؤلاء الذين بعثك الله لإخراجهم من الظلمات إلى النور فكذبوك واستحبوا العمى على الهدى. لا شك أن حالهم سيكونُ أسوأُ حالٍ، ومصيرهم سيكونُ أقبحُ مصيرٍ، بسبب كفرهم وبخلهم ورياءهم واتباعهم للهوى والشيطان[٤].

ومن العلماء من يرى أن المراد بقوله- تعالى- :(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا) أي: جئنا بك يا محمدٌ شهيدًا على هؤلاء الأنبياء بأنهم قد بلغوا رسالة الله

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣: ١٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ١٠:: ١٠٥.

(٣) المرجع السابق، ١٠:١٠٥.

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،٣ : ١٥٤.

ولم يقصروا في نصيحة أقوامهم. والذي نراه أولى هو أن شهادة النبي- ﷺ - تشمل كل ذلك أي: تشمل شهادته على قومه بأنه قد بلغهم رسالة الله، وشهادته للأنبياء السابقين بأنهم نصحوا لأقوامهم وبلغوا رسالة ربهم، لأن النبي- ﷺ- قد أعطاه الله - تعالى- من المنزلة العالية ما لم يعط أحدًا سواه[١].

أما قوله - تعالى-:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل: ٨٩). أي: نبيًا يشهدُ(عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) أي: من جنسهم إتمامًا للحجة وقطعًا للمعذرة، وهو أعدل شاهد عليها، وهذا تكريرٌ لما سبق لقصد التأكيد والتهديد[٢].

قال الخطيب: "كرر - سبحانه- التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو إن الشهادة تقعُ على الأمم لا لهم وتكون بحضرتهم(وَجِئْنَا بِكَ) يا محمد؛ وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه- عليه الصلاة والسلام-، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع"[٣]. و(شَهِيدًا) تشهدُ(عَلَى هَؤُلَاءِ) أي على هذه الأمم، وقيل على أمتك وقومك، هكذا قال الجلال، وسنده قوله سابقًا:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) إلخ ومثله في البيضاوي، وفي الشهاب عليه، وقيل الآية مسوقة لشهادته على الأنبياء فتخلوا عن التكرار، ورد بأن المراد بشهادته على أمته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الأنبياء، وهذا لم يعلم مما مر وهو الوارد في الحديث، وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء[٤].

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ،٣ : ١٥٤.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن على ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، ٧: ٣٠٠، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

(٣) المرجع السابق، ٧: ٣٠٠.

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، ٧: ٣٠٠.

وهو خطابٌ للنبي الكريم، وبيانٌ لموقفه من قومه يوم القيامة فهو الشـــهيدُ عليهم، كما أن كل نبي سيكون شهيدًا على قومه(١). والإشارة فى قوله – تعالى– :(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَآءِ) الإشارة هنا(بهؤلاء)، تتجــه أولــًا إلـــى أولئـــك المشركين، الذين يتولّون كبر الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية، ويحـــادّون الله ورسوله.. ثم إلى من بلغته الدعوة(٢).

وهو تكريرٌ لجملة:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُـــمَّ لَـــا يُـــؤْذَنُ لِلَّـــذِين كَفَرُوا)[سورة النحل: ٨٤] ليبنى عليه عطف جملة:(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَآءِ) على جملة:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم). ولما كان تكريرًا أُعيد نظيـــر الجملة على صورة الجملة المؤكدة مقترنة بالواو، ولأن في هذه الجملـــة زيـــادة وصف من أنفسهم فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضًا(٣). ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله– تعالى–:(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إلى قوله:(بِمَا كَـــانُواْ يُفْسِدُونَ)[سورة النحل: ٨٤– ٨٨] ، فهو كالإعادة في قول لبيد بن ربيعة:

فتنازعا سَـــبِطاً يطيرُ ظلالُهُ ** كدخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا
مشمُولةٍ غلِثَتْ بنابتِ عرفَجٍ ** كَدُخَانِ نارٍ سَاطِعٍ أسْنَامُها(٤).

مع أن الإعادة هنا أجدر لأنّ الفصل أطول. وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل. وعدي فعل(نبعث) هنا بحرف في، وعدي نظيره فـــي الجملـــة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنن بين المكررين تجديدًا لنشاط السامعين. وزيد في هذه الجملة أن الشهيد يكون من أنفسهم زيادة في التذكير بأن شهادة الرســـل

---

(١) التفسير القرآني للقرآن،٧: ٣٤٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤: ٢٥٠.

(٣) المرجع السابق، ١٤: ٢٥٠.

(٤) البيت من بحر(الكامل)، وهو في ديوان لبيد بن ربيعة العامري شرح الطوسي، تأليف/ لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري الشاعر، تحقيق: الدكتور: حنا نصـــر، ٢١٤، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها لأنها شهود من قومهم لا يجد المشهود عليهم فيها مساغًا للطعن. ولم تخل أيضًا بعد التعريض بالتحذير من صد الكافرين عن سبيل الله من حسن موقع تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم شهيدًا يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضر أعداءهم. والقول في بقية هذه الجملة مثل ما سبق في نظيرتها(١).

ولما كان بعث الشهداء للأمم الماضية مرادًا به بعثهم يوم القيامة عبر عنه بالمضارع. وجملة :(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا) يجوز أن تكون معطوفة على جملة ويوم نبعث كلها. فالمعنى: وجئنا بك لما أرسلناك إلى أمتك شهيدًا عليهم، أي: مقدرًا أن تكون شهيدًا عليهم يوم القيامة؛ لأنّ النبي- ﷺ- لما كان حيًا في آن نزول هذه الآية كان شهيدًا في الحال والاستقبال، فاختير لفظ الماضي في[جئنا]: للإشارة إلى أنه مجيء حصل من يوم بعثته(٢).

ويعلم من ذلك أنه يحصل يوم القيامة بطريق المساواة لبقية إخوانه الشهداء على الأمم، إذ المقصود من ذلك كله تهديد قومه وتحذيرهم. وهذا الوجه شديد المناسبة بأن يعطف عليه قوله- تعالى-:(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)[سورة النحل: ٨٩]الآية(٣).

وقد علمت من هذا أن جملة:(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا) ليست معطوفة على:[نبعث] بحيثُ تدخل في حيز الظرف وهو يوم، بل معطوفة على مجموع جملة[يوم نبعث]؛ لأن المقصود وجئنا بك شهيدًا من وقت إرسالك. وعلى هذا يكون الكلام تم عند قوله:(مّنْ أَنفُسِهِمْ) فيحسن الوقف عليه لذلك. ويجوز أن تعطف على جملة:(نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) فتدخل في حيز الظرف ويكون الماضي مستعملًا في معنى الاستقبال مجازًا لتحقق وقوعه، فشابه به ما حصل ومضى، فيكون الوقف على

(١) التحرير والتنوير، ١٤: ٢٥١.

(٢) المرجع السابق، ١٤: ٢٥١.

(٣) المرجع السابق، ١٤: ٢٥١.

قوله: (شَهيدًا). ويتحصل من تغيير صيغة الفعل عن المضارع إلى الماضي تهيئة عطف(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)(١).

ولم يوصف الرسول- ﷺ- بأنه من أنفسهم؛ لأنّه مبعوثٌ إلى جميع الأمم، وشهيدٌ عليهم جميعًا، وأما وصفه بذلك في قوله – تعالى-:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ) في سورة التوبة[١٢٨] فذلك وصفٌ كاشفٌ اقتضاه مقام التذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضموا إلى الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم. وليس في قوله:(عَلَى هَؤُلآءِ) ما يقتضي تخصيص شهادته بكونها شهادة على المتحدث عنهم من أهل الشرك، ولكن اقتصر عليهم لأن الكلام جارٍ في تهديدهم وتحذيرهم.{وهؤلاء} إشارةٌ إلى حاضرٍ في الذهن وهم المشركون الذين أكثر الحديث عليهم. وقد تتبعت مواقع أمثال اسم الإشارة هذا في القرآن فرأيته يعنى به المشركون من أهل مكة. وتقدم بيانه عند قوله – تعالى-:(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا)في سورة النساء[٤١]، وقوله – تعالى-:(فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَآءِ) في سورة الأنعام [٨٩](٢).

فقوله- تعالى-:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ)(النحل: ٨٩)، (يوم) منصوب بفعل محذوف معناه، واذكر يوم نبعث في كل أمة شهيدًا(مِّنْ أَنفُسِهِمْ)(٣)، أي: منهم، ومن أنفس قومه كما بعث النبي – ﷺ- في العرب من أنفسهم، وكلمة (نَبْعَثُ) تدل على أنه يبعثه اللَّه- تعالى- مع قومه شهيدًا لهم أو عليهم يوم القيامة، ويذكر النبي – ﷺ- بأنه بعث في كل أمة شهيدًا عليهم يبلغهم في حياته، ويشهد عليهم يوم القيامة(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَآءِ) والجمع بين المضارع في قوله:(وَيَوْمَ نبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مّنْ أَنفُسِهِمْ)، والماضي في قوله – تعالى-:(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَآءِ) يدل على أن البعث في الدنيا بإرسال الرسل مبشرين، ومنذرين، والنبي- ﷺ- شهيدٌ على كل الرسل؛ لأنّ

(١) التحرير والتنوير، ١٤: ٢٥١.

(٢) المرجع السابق، ١٤ : ٢٥٢.

(٣) زهرة التفاسير، ٨: ٤٢٤٦.

رسالته هي الكاملة، وهي المتضمنة لكل الرسالات الإلهية كلها، فالإسلام دين اللَّه، وهو دين النبيين أجمعين، وهو خاتم الرسالات كلها[١]. وتدل بهذا الجمع بين الماضي والمستقبل بأنّ اللهَ – تعالى- يبعثُ مع كل أمة يوم القيامة شهيدًا عليها بأنه أدى الرسالة وشهيدًا لمن آمن واتقى، وشاهدًا على من كفر وعصى[٢].

قال الإمام الرازي: "اعلم أنه- تعالى- لما بيّن حال القوم، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وذكر أيضًا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد، فذكر حال يوم القيامة فقال:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلّ أُمَّةٍ شَهِيداً...) وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار، وبذلك الكفر، والمراد بهؤلاء الشهداء: الأنبياء، كما قال- تعالى-:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيداً)"[النساء: ٤١][٣].

والمعنى: واذكر- أيها العاقل لتعتبر وتتعظ-(يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ)أي: جماعة من الناس،[شَهِيدًا] يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر. قال ابن عباس: " شهيدُ كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والتكذيب"[٤].

ثُمَّ خصص الله – تعالى- بالذكر شهادة محمد- ﷺ- على أمته، وهو نوعٌ آخرٌ من التهديد المانع من المعاصي، فقال مخاطبًا رسوله:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمَّةٍ...)[٥]. أي: واذكر أيها الرسول يوم نبعث في كل أمة: أي قرن وجماعة نبيها يشهد عليها، قطعًا للحجة والمعذرة، وجئنا بك شاهدًا على هؤلاء أي أمتك، بما أجابوك به عن رسالتك، فيظهر لك الشرف الرفيع والمقام العظيم[٦].

---

(١) زهرة التفاسير، ٨: ٤٢٤٦- ٤٢٤٧.

(٢) المرجع السابق، ٨: ٤٢٤٧.

(٣) مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٢٠: ٢٥٥.

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٨: ٢١٢.

(٥) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، تأليف/ د: وهبة بن مصطفى الزحيلي، ١٤: ٢٠٧، ط: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨ه.

(٦) المرجع السابق، ١٤: ٢٠٧.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله- ﷺ- صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا) [النساء: ٤١] فقال له رسول الله - ﷺ- :[حسبك]، فقال ابن مسعود - رضي الله عنه-: فالتفتّ، فإذا عيناه تذرفان[١].

أما قوله- تعالى-:(وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ)[الحج: ٧٨][٢]، الإشارة هنا[بهذا] إلى قوله تعالى:(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدّينِ مِنْ حَرَجٍ)،أي: وفى هذا الاجتباء، ورفع الحرج عنكم، سببٌ لأن يكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس، وشهادة الرسول على أمته، هو أن يشهد بأنه بلغ رسالته فيهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله، وإلى الاستقامة على ما شرع الله لهم من عبادات وأحكام.. [٣]، وهو بهذه الشهادة يدين كلّ من أبى وقصر.. أما شهادة هذه الأمة على الناس، فهى مثل شهادة الرسول عليهم... أي: أنهم بمنزلة الرسول فى الناس، يدعونهم إلى الله، ويبلغونهم رسالة الإسلام، وهم بهذه الشهادة يدينون كلّ من أبى الاستجابة لهم، والدخول فى دين الله معهم..، وهذه المنزلة التي رفع اللهُ بها قدر هذه الأمة، وأعلى بها شأنها فى الناس، وجعل لها بها ما للرسل فى أقوامهم- هذه المنزلة العالية الرفيعة، هى أمانة لا يحملها إلا أولو العزم من الناس، ومن هنا كان واجبًا على كل مسلمٍ أن ينهض بحمل هذا العبء، وأن يرى الناس منه في قوله وعمله، من استقامة الخلق، واعتدال السلوك ما يرى الناس فى الأنبياء والرسل[٤]. فيا ليت قومي يعلمون هذا الشرف العظيم، الذى قلده الله- سبحانه وتعالى- إيّاهم، وهذا الواجب الكريم الذى أناطه بهم، وهذا المقام الرفيع الذى أقامهم على الناس فيه..[٥]!!

---

(١) التفسير الوسيط في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٤: ٢٠٧.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، ٩: ١١٠٧.

(٣) المرجع السابق، ٩: ١١٠٨.

(٤) المرجع السابق، ٩: ١١٠٧.

(٥) المرجع السابق، ٩: ١١٠٧.

إن أي مسلم لا يرى- بعمله وعلمه، وقدره فى الناس- أنه في مكان القيادة من المجتمع الإنساني، فهو ليس من الإسلام في شيء.. إنه لن يكون في المسلمين الذين يشهدون على الناس يوم القيامة(١).

والإشارة في قوله:(وَفِى هَذَا) إلى القرآن كما في قوله- تعالى-:(ائْتُونِى بِكِتَابٍ مّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[الأحقاف: ٤]،أي: وسماكم المسلمين في القرآن. وذلك في نحو قوله:(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[آل عمران: ٦٤] وقوله:(وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)[الزمر: ١٢](٢). و[اللام] في قوله:(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ) يتعلق بقوله:(ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ)[الحج: ٧٧] أو بقوله:(اجْتَبَاكُمْ) أي: ليكون الرسول، أي: محمد- ﷺ- شهيدًا على الأمة الإسلامية بأنها آمنت به، وتكون الأمة الإسلامية شاهدةٌ على الناس، أي: على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمدٍ - ﷺ-(٣).

وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا، وقدمت شهادة الأمة في آية[البقرة: ١٤٣](وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)؛لأنّ آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذى جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم(٤).

فقوله-تعالى-:(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ)[الحج:٧٨]، يقول- تعالى- ذكره اجتباكم الله وسماكم أيها المؤمنون بالله وآياته من أمة محمد- ﷺ- مسلمين؛ ليكون محمد- ﷺ- رسول الله شهيدًا عليكم

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٩: ١١٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ١٧: ٣٥١.
(٣) المرجع السابق، ١٧: ٣٥١.
(٤) المرجع السابق، ١٧: ٣٥٢.

يوم القيامة، بأنه قد بلَّغكم ما أرسل به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذٍ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلَّغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم(١).

وهنا على مدار تلك الآيات التي وصفت الحبيب المصطفي- ﷺ- بالشهيد، نجد أن القرآن الكريم انتقى تلك اللفظة دون غيرها من الألفاظ الأخري؛ وذلك ليوكد أن مهمة الرسول- ﷺ- الشهادة على أمته، فهو حاضرٌ شاهدٌ علي أعمالهم، يشهد عليهم بأنّه قد أبلغهم ما أرسل به إليهم من ربهم، فالشاهِدُ والشَّهيدُ: الْحَاضِر، وَالْجمع شُهداءُ وشُهَّدٌ وشُهَّادٌ وأشْهادٌ وشُهودٌ(٢).

كما أنّ التنكير في[شهيدًا] يُفيد التعظيم، فالنبيُّ- ﷺ- لا يخفى عليه شيءٌ من أفعال أمته، وإذا كان النبيُّ- ﷺ- كما وصفه ربه بالشهيد، فهذا أدعى لأمته أن يراقبوا الله – تعالى- في السر والعلن، حتى يشهد لهم النبيُّ الكريمُّ- ﷺ- بصلاحهم وفعلهم الحسن. وهنا نلحظ اشتراك النبي- ﷺ- في هذا الوصف مع ربه، فمن أسماء الله- تعالى- الحسني[الشهيد]؛ وذلك تكريمًا وتعظيمًا للحبيب المصطفي- ﷺ-.

(١) تفسير الطبري(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تأليف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، ١٦: ٦٤٧،ط: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، تأليف/ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مادة: [ش ه د]، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

المبحث الثالث

وصفه - ﷺ - بالرؤوف الرحيم

وصف الله – تعالى– نبيهُ الكريمُ محمدًا– ﷺ– بصفتين عظمتين وهما الرأفة والرحمة، فقال– تعالى– وهو أصدق القائلين:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[التوبة:١٢٨]، وقد تفرد النبيُّ الكريمُّ بهاتين الصفتين دون بقية الأنبياء والمرسلين، فلم يكن هناك أرحم وأشفق من النبي– ﷺ– بأمته، فهو رووف رحيم بهم.

وفى وصفه– ﷺ– بالرأفة والرحمة يقول – تعالى–:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[التوبة:١٢٨]، قَالَ بَعْضُهُمْ:(مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أي: من البشر وهو امتنانٌ منه عليهم؛ حيثُ بعثُ الرسول من البشر وله أن يبعث من غير البشر، لكنه بعث من البشر؛ ليعرفوا الآيات التي يأتي بها من التمويهات؛ لأنّهم يعرفون مبلغ وسع البشر في الأشياء وقدر إمكانهم بعلم الأشياء، فإذا جاء بالأشياء التي هي خارجة عن الطباع ووسع البشر في التعليم، عرفوا أنها آيات لا تمويهات، مع ما يألف كل ذي جنس بجنسه وينفر من غير جنسه، هذا ظاهرٌ في الخلائق أن كل ذي جنس يألف بجنسه ولا يألف بغير جنسه، فبعث الرسول من البشر ومن جنسهم؛ ليألفوا به، ويقبلوا منه ما يأتيهم به ويجيبوه إلى ما يدعوهم إليه(١). وقَالَ بَعْضُهُمْ:(رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، أي: من المكان الذى أنتم فيه وهو الحرم(٢). وقال آخرون:(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، أي: من أنسابكم، وهو أيضًا موضع الامتنان عليهم؛ حيثُ بعثه من أنسابهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه من بين أظهرهم سليمًا عن جميع الآفات بريئًا عن جميع المطاعن والعيوب؛ لأنّ المرء إذا كان مولده ومنشؤه من غير أظهرهم في قبيلةٍ أو في

(١) تفسير الماتريدي(تأويلات أهل السنة)، تأليف/ محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د، مجدي باسلوم، ٥: ٥١٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

(٢) المرجع السابق، ٥: ٥١٦.

مكانٍ لا يعرف له النسب[1]، ربما يتمكن فيه الطعن والعيب، ويقع التناكر في نسبه؛ لجهلهم بنسبه ومولده ومنشئه على السلامة والصحة والبراءة من العيوب، فبعث رسوله محمدًا – ﷺ-؛لئلا يتمكن فيه ما ذكرنا من المطاعن، ولا يعرف شيء من العيوب والآفات التي ذكرنا فيه[2]. وقوله:(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ). قيل: شديدٌ عليه ما أعنتكم، أي: ما ضيق عليكم وضركم. وقَالَ الْقُتَبِيُّ: العنت: الضيق. وقَالَ بَعْضُهُمْ: العنت: الإثم، أي: شديدٌ عليه ما أثمتم. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: هو إلى الإثم أقرب. وهو يحتمل كل إثم: الكفر وغيره.(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ). قَالَ بَعْضُهُمْ: حريصٌ على من لم يسلم أن يسلم، وحريصٌ عليكم بالهدى والرشد.(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ): رحمة الدِّين والإسلام لا رحمة الطبع[3].

قال الشيخ أبو منصور – رحمهُ اللَّه – في قوله:"(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ): سماه بفعله العمل الحسن وبرأفته ورحمته بذلك، أي: استحق ذلك الاسم بفعله، وإنما سماه بذلك؛ لأنّ عمله كان لله لم يكن عمل لنفسه شيئًا، وكذلك ماله وأكسابه؛ فلذلك لم يكن ماله ميراثًا بين ورثته"[4]. ويقال: هذا الخطاب لجميع العرب(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ) يعني: محمدًا- ﷺ- مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعني: من جميع العرب، لأنه لم يكن في العرب قبيلةٌ إلا ولرسول الله- ﷺ- فيها قرابة[5].

وهذا من المجاز والاستعارة؛ لأن النبي-ﷺ – كان فيهم ولم يجيء من موضعٍ آخر، ولكن معناه: ظهر فيكم رسول الله-ﷺ – ويقال: هذا الخطاب لجميع الناس:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) يعني: آدمياً مثلكم. قرأ بعضهم(مِنْ أَنْفُسِكُمْ) بنصب الفاء يعنى: من أشرفكم وأعزكم وهي قراءةٌ شاذةٌ. ثم قال – تعالى-:

---

(١) تفسير الماتريدي(تأويلات أهل السنة) ، ٥: ٥١٦.

(٢) المرجع السابق، ٥: ٥١٧.

(٣) المرجع السابق، ٥: ٥١٧.

(٤) المرجع السابق، ٥: ٥١٨.

(٥) بحر العلوم، تأليف/ أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، ٢: ١٠٠،(د ت).

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)، يعني: شديدٌ عليه ما أثمتم وعصيتم(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) قال الكلبي: يعني: على إيمانكم وقال مقاتل: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالرشد والهدى. وقال قتادة: حَرِيصٌ على من لم يسلم أن يسلم. ثم قال:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[١]، أي: رفيقٌ بجميع المؤمنين رَّحِيمٌ بهم[٢].

فـ(رَءُوفٌ رَحِيمٌ): قدّم الأبلغ منهما وهو:{الرؤوف}؛ لأنّ الرأفة شدة الرحمة محافظةً على الفواصل[٣]. وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحدٍ غير رسول الله- ﷺ-[٤].

فلما بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقصّ فيها أحوال المنافقين شيئًا فشيئًا، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسولٌ من جنسهم، أو من نسبهم عربيًا قرشيًا يبلغهم عن الله متصفٌ بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم، ويرحمهم[٥].

قال ابن عباس: "ما من قبيلةٍ من العرب إلا ولدت النبي- ﷺ -، فكأنه قال: يا معشر العرب لقد جاءكم رسولٌ من بني إسماعيل، ويحتمل أن يكون الخطاب لمن بحضرته من أهل الملل والنحل، ويحتمل أن يكون خطابًا لبني آدم، والمعنى: أنه لم يكن من غير جنس بني آدم، لما في ذلك من التنافر بين الأجناس

---

(١) بحر العلوم، ٢: ١٠٠.

(٢) المرجع السابق،٢: ١٠١.

(٣) تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، تأليف/ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ٣: ١٠٣، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه.

(٤) تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تأليف/ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الله النسفي، تحقيق: يوسف على بديوي، ١: ٧١٩، ط: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه- ١٩٩٨م.

(٥) البحر المحيط في التفسير، ٥: ٥٣١.

كقوله:(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا)[الأنعام:٩] ولما كان المخاطبون عامًا، إما عامة العرب، وإما عامة بني آدم، جاء الخطابُ عامًا بقوله:(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم) أي: على هدايتكم حتى لا يخرج أحدٌ عن اتباعه فيهلك. ولما كانت الرأفة والرحمة خاصةً جاء متعلقها خاصًا وهو قوله:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)"[١].

ولما كان الرسول- ﷺ-يجب إكرامه والوقوف في خدمته لأجل مرسله ولو تجرد عن غير ذلك الوصف، شرع يذكر لهم من أوصافه ما يقتضي لهم مزيد إكرامه فقال:(مّنْ أَنفُسِكُمْ)أي: ترجعون معه إلى نفسٍ واحدةٍ بأنكم لأب قريب، وذلك أقرب إلى الألفة وأسرع إلى فهم الحجة[٢]. وأبعد من المحل واللجاجة(عَزِيزٌ)أي: شديدٌ جداً(عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) والعزة: امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة، والعنت: لحاق الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدي للمخرج منه(حَرِيصٌ)أي: بليغ الحرص(عَلَيْكُم)أي: على نفعكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه، وقدم الجار لإفادة الاختصاص فقال:(بِالْمُؤْمِنِينَ)أي: العريقين في هذا الوصف كافة خاصة، ولما ذكر الوصف المقتضي للرسوخ، قدم ما يقتضي العطف على من يتسبب له بما يقتضي الوصلة فقال:(رَءُوفٌ)أي: شديد الرحمة لمن له منه عاطفة وصلة لما تقدم من معنى الرأفة قريبًا[٣].

ولما كان المؤمن يطلق مجازًا على من يمكن منه الإيمان فوصلته الآن ليست بالفعل بل الإمكان، قال تعميمًا لرحمته- ﷺ- كما هو اللائق بشريف منصبه وعظيم خلقه:(رَّحِيمٌ) ولأجل مثل هذه الأغراض النفسية رتب- سبحانه- هذين الوصفين هكذا، ولكن المعاني المرادة تارةً يظهرها الله – تعالى- لعبده منحةً له

(١) البحر المحيط في التفسير، ٥: ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق، ٥ : ٥٣٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف/ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن على بن أبي بكر البقاعي، ٩: ٥٦، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).

وإكرامًا، وتارةً يخفيها إظهارًا لعجزه ونقصانه ثم يظهرها له في وقتٍ آخر إن صدق في التضرع وإظهار الافتقار والتذلل وأدام الطلب، أو لغيره ممن هو أقل منه علمًا وأضعف نظرًا وفهمًا(١).

ثم ختم اللهُ- سبحانه- هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال موبخًا:(لَقَدْ جَآءَكُمْ) يا معشر العرب، والخطاب لهم عند جمهور المفسرين، وقال الزجاج: هي خطابٌ لجميع العالم أي: لقد جاءكم(رَسُولٌ) أرسله الله إليكم له شأنٌ عظيمٌ(مّنْ أَنفُسِكُمْ) أي: من جنسكم في كونه عربيًا قرشيًا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه، وأنه من ولد إسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك، وقرئ:(أنفس) أفعل تفضيل من النفاسة والمراد الشرف أي: أشرفكم وأفضلكم وسيأتى تخريجه(٢).

وقد وصف اللهُ- تعالى- رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمور الأمم بالحق والعدل والفضل، وفي الصحاح والقاموس أنّ الرأفة أشد الرحمة(٣). وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد. وقال بعضهم: إن الرأفة أخص، لا تكاد تقع في الكراهية، والرحمة قد تقع في الكراهية للمصلحة، واختار الرازي أنّها مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصةٍ من دفع المكروه وإزالة الضرر(٤).

وفى قوله- تعالى-:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) إشارةٌ إلى أن عطف النبي- ﷺ- ورحمته بالناس وحدبه عليهم ليس لقومه وحدهم، وإنما هو نفسٌ رحيمةٌ كريمةٌ تتسع للناس للمؤمنين جميعًا، من كل جنسٍ ومن كل لونٍ.. فهو رءوفٌ رحيمٌ بكل مؤمنٍ، حريصٌ على هداية كل نفس واستنقاذها من الضلال والضياع!

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ٩: ٥٧.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، ٥: ٤٣١.

(٣) تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار)، ١١: ٧٢.

(٤) المرجع السابق، ١١: ٧٢.

وفى وصف النبي الكريم بهاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله- سبحانه-: (رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) تكريمٌ للرسول الكريم، ورفعٌ لقدره عند ربه(١).

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد- ﷺ - والتنويه بصفاته الجامعة للكمال(٢). ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفًا رحيمًا بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها اللهُ- تعالى- مقارنةً لبعثة رسوله- ﷺ- بقوله:(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[الأنبياء: ١٠٧]، بحيثُ جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبًا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن(٣).

وقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها. فالجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة. والخطاب بقوله:(جَآءَكُمْ) وما تبعه من الخطاب موجهٌ إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام(٤). والمقصود بالخطاب بادىء ذي بدء هم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) وسيجيء أن المقصود العرب(٥).

وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما اللام و(قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذى سيقت لأجله وهو الذى سنذكره، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولًا من الله،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٦: ٩٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ١١: ٧٠.

(٣) المرجع السابق،١١: ٧١ .

(٤) المرجع السابق،١١: ٧١ .

(٥) المرجع السابق، ١١: ٧١.

ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيثُ إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء، ولأن في هذا التأكيد تسجيلًا عليهم مرادًا به الإيماء إلى اقتراب الرحيل، لأنه لما أُعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصلٌ منذ أعوامٍ طويلةٍ كان ذلك كنايةٌ عن اقتراب انتهائه، وهو تسجيلٌ منه على المؤمنين، وإيداعٌ للمنافقين ومن بقى من المشركين. على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله- تعالى-:(يَآأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)[المائدة: ١٥]وكقوله- تعالى-:(يَآأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَانٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا[النساء: ١٧٤] فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار(١).

والمجيء: مستعملٌ مجازًا في الخطاب بالدعوة إلي الدين. شبّه توجهه إليهم بالخطاب الذى لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكانٍ آخر. وهو استعمالٌ شائعٌ في القرآن. والأنفس: جمع نفس وهي الذات. ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير، أي: هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلفٍ أو ولاءٍ أو إلصاق(٢). يقال: هو قريشي من أنفسهم، ويقال: القريشي مولاهم أو حليفهم، فمعنى من أنفسكم من صميم نسبكم، فتعين أن الخطاب للعرب؛ لأنّ النازل بينهم القرآن يومئذ لا يعدون العرب ومن حالفهم وتولاهم مثل سلمان الفارسي وبلال الحبشي، وفيه امتنانٌ على العرب وتنبيهٌ على فضيلتهم، وفيه أيضًا تعريضٌ بتحريضهم على اتباعه وترك مناوأته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال – تعالى- في ذكر القرآن:(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ)[الزخرف: ٤٤] أي: يبقى منه لكم ذكرٌ حسنٌ(٣). وما: مصدرية. وعنتم: تعبتم. والعنت: التعب، أي: شاقٌ عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله:(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ

(١) التحرير والتنوير، ١١: ٧١.

(٢) المرجع السابق، ١١: ٧١.

(٣) المرجع السابق، ١١: ٧١.

نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)[الشعراء: ٣] وذكر هذا في صفة الرسول – ﷺ– يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. ومن آثار ذلك شفاعته للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب. ثم إن ذلك يومىء إلى أن شرعه جاء مناسبًا لخُلُقه فانتفى عنه الحرج والعسر قال– تعالى–:

(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[البقرة: ١٨٥]، وقال:(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[الحج: ٧٨] (١). والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذى هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع(ما) المصدرية السابكة للمصدر نكتة(٢).

وهي إفادة أنّه قد عز عليه عنتهم الحاصل في الزمن الذي مضى، وذلك بما لقوه من قتل قومهم، ومن الأسر في الغزوات، ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن. فلو أتي بالمصدر لم يكن مشيرًا إلى عنتٍ معينٍ ولا إلى عنتٍ وقع لأن المصدر لا زمان له بل كان محتملًا أن يعز عليه بأن يجنبهم إيّاه، ولكن مجيء المصدر منسبكًا من الفعل الماضي يجعله مصدرًا مقيدًا بالحصول في الماضي، ألا ترى أنك تقدره هكذا: عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيهًا على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلوائهم ويرعوون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم(٣).

والحرص: شدة الرغبة في الشيء والجشع إليه. ولما تعدى إلى ضمير المخاطبين الدال على الذوات وليست الذوات هي متعلق الحرص هنا تعين تقدير مضاف فهم من مقام التشريع، فيقدر: على إيمانكم أو هديكم.(الرؤوف):الشديد الرأفة. والرحيم: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما وهو بالمؤمنين(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ١١: ٧٢.
(٢) المرجع السابق، ١١: ٧٢.
(٣) المرجع السابق، ١١: ٧٢.
(٤) المرجع السابق، ١١: ٧٣.

والرأفة: رقةٌ تنشأ عند حدوث ضر بالمرؤوف به. يقال: رءوفٌ رحيمٌ. والرحمة: رقةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة. وتقدمت الرأفة عند قوله- تعالى-:(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) في سورة البقرة[١٤٣] والرحمة في سورة الفاتحة[٣][(١)]. وتقديم المتعلق على عامليه المتنازع عليه في قوله:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأما رحمته بهم. وأما رحمته العامة الثابتة بقوله- تعالى-:(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[الأنبياء: ١٠٧] فهي رحمةٌ مشوبةٌ بشدةٍ على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائفٌ وراحمٌ، ولا يقال: بهم رءوفٌ رحيمٌ[(٢)].

ثم ختم اللهُ- سبحانه- سورة التوبة بآيتين كريمتين، اشتملتا على أسمى النعوت، وأكرم الصفات للرسول- ﷺ- فقال- تعالى-:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، [التوبة:١٢٨،١٢٩]. وجمهور المفسرين على أن الخطاب في قوله- سبحانه-: (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ) للعرب: فهو كقوله:(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيّينَ رَسُولًا مّنْهُمْ)[الجمعة:٢][(٣)]. أي: لقد جاءكم-يا معشر العرب- رسولٌ كريمٌ(مّنْ أَنفُسِكُمْ) أي: من جنسكم ومن نسبكم، فهو عربيٌ مثلكم، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه[(٤)]. فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب في الإيمان بالنبي- ﷺ- وفي طاعته وتأييده، فإن شرفهم قد تم بشرفه، وعزهم بعزه، وفخرهم بفخره، وهم في الوقت نفسه قد شهدوا له في صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب، والأخلاق الحميدة[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير، ١١: ٧٣.
(٢) المرجع السابق، ١١: ٧٣.
(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،٦ : ٤٣٢.
(٤) المرجع السابق،٦ : ٤٣٢.
(٥) المرجع السابق، ٦: ٤٣٢.

قال القرطبي: "قوله(مّنْ أّنفُسِكُمْ) يقتضى مدحًا لنسب النبي-ﷺ- وأنه من صميم العرب وخالصها، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ". وَرُوِيَ عَنْهُ - ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: "إِنِّي مِنْ نِكَاحٍ وَلَسْتُ مِنْ سِفَاحٍ"(١). وقال الزجاج :"إن الخطاب في الآية الكريمة لجميع البشر، لعموم بعثته - ﷺ-، ومعنى كونه- ﷺ -(مّنْ أّنفُسِكُمْ) أنه من جنس البشر"(٢).

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح؛ لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته- ﷺ - وعمومها، وإنما هي مسوقةٌ لبيان منته وفضّله- سبحانه- على العرب، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به، لأنه ليس غريبًا عنهم، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم والعقوبة لهم أعظم. وقوله:(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) أي: شديدٌ وشاقٌ عليه عنتكم ومشقتكم لكونه بعضًا منكم فهو يخاف عليكم سوء العاقبة، والوقوع في العذاب. يقال: عزّ عليه الأمر أي: صعب وشق عليه، والعنت: المشقة والتعب ومنه قولهم: أكمة عنوت، إذا كانت شاقةٌ مهلكةٌ، والفعل عنت بوزن فرح(٣). وقوله:(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) أي: حريصٌ على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة. والحرص على الشيء معناه: شدة الرغبة في الحصول عليه وحفظه(٤).

وقوله:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) أي: شديد الرأفة والرحمة بكم- أيها المؤمنون- والرأفة: عبارة عن السعى في إزالة الضرر، والرحمة: عبارة عن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ٨: ٣٠١، ط: دار الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٤ه- ١٩٦٤م.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٦: ٤٣٣.

(٣) المرجع السابق، ٦: ٤٣٣.

(٤) المرجع السابق، ٦: ٤٣٣.

السعى في إيصال النفع، فهو- ﷺ- يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم(١). قال بعضهم:" لم يجمع الله- تعالى- لأحدٍ من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي- ﷺ- فإنه قال:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة:١٢٨] وقال عن ذاته- سبحانه-:(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)" [البقرة:١٤٣](٢).

قال الشيخ الشنقيطي: "هذه الآية الكريمة تدلُ على أن بعث هذا الرسول الذي هو من أنفسنا الذى هو متصفٌ بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال، وغاية شفقته علينا هو أعظم منن الله – تعالى-، وأجزل نعمة علينا، وقد بين ذلك في موضعٍ أخرٍ؛ كقوله – تعالى-:(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مّنْ أَنفُسِهِمْ)[آل عمران:١٦٤]الآية. وقوله:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)[إبراهيم:٢٨]" (٣).

فهذه الآية خطابٌ صريحٌ للعرب، على جهة تعداد النعم عليهم في ذلك، حيثُ جاءهم النبي العربي محمد- ﷺ- بلغتهم ومن جنسهم وبما يألفون من أغراض البيان، وفصاحة الكلمة والجمل، وبما يشرفون به على مدى الأيام والأزمان، ووصفه الله بصفات خمس ذات جذور عربية قوية(٤):

أول هذه الصفات:(مّنْ أَنفُسِكُمْ)أي: من الجنس العربي، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، من غير إشادة بنزعةٍ عرقيةٍ أو عصبيةٍ، قال ابن عباس: إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي- ﷺ- مضريّها وربيعيها ويمانيها، أي إن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب(٥).

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ٦: ٤٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، ٨: ٣٠١.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، تأليف/ الأستاذ الدكتور: حكمت بن بشير بن ياسين،٢: ٥٠٣، ط: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٤) التفسير الوسيط للزحيلي، تأليف/ د: وهبة بن مصطفى الزحيلي، م ١: ٩٣٥، ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٥) المرجع السابق، م ١: ٩٣٥.

والصفة الثانية:(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)أي: شديدٌ عسيرٌ عليه وقوعكم في العنت، أي: المشقة، والتعرض للمكروه في الدنيا والآخرة، إذ هو منكم، يتألم لألمكم، ويفرح لفرحكم، فكل ما يقع منكم من كفرٍ وضلالٍ بسبب الحق، أو من قتلٍ وإسارٍ وامتحانٍ بسبب الحق يسوؤه ذلك. الصفة الثالثة:(حَرِيصٌ عَلَيْكُم)أي: حريصٌ على هدايتكم وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، أو حريصٌ على إيمانكم وهداكم(١).

الصفة الرابعة والخامسة:(بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ):أي: شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله- تعالى- باسمين من أسمائه. والرؤوف: المبالغ في الشفقة، والرأفة أرق وأخص من الرحمة(٢). قال الحسن بن فضيل: " لَمْ يَجْمعِ اللهُ لأَحدٍ منَ الأَنبياءِ بينَ اثنينِ من أَسمائه إِلَّا لِلنَّبى- ﷺ- فَقَد سمَّاه رَؤُوفًا رَّحِيمًا"(٣).

وعلي مدار تلك الآية التي وصفت الحبيب المصطفي- ﷺ- [بالرءوف الرحيم] نجد أنّ القرآن الكريم انتقي لفظتي[الرأفة والرحمة] دون غيرهما من الألفاظ الأخري؛ وذلك لأنّ الرأفة أبلغ من الرَّحْمَة ولِهَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَة إِن قَوْله:(رؤوف رَحِيم) تَقْدِيمًا وتأخيرًا أَرَادَ أَن التوكيد يكون فِي الأبلغ فِي الْمَعْنى فَإِذا تقدم الأبلغ فِي اللَّفْظ كَانَ الْمَعْنى مُؤَخرًا(٤)، فالرؤوفُ: الشديدُ الرحمةِ.

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي، م١: ٩٣٦.

(٢) المرجع السابق، م١: ٩٣٦.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٤: ٣٩.

(٤) الفروق اللغوية، تأليف/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ص: ١٩٦، ط: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،[د ت].

والرأفةُ. أرَقُّ من الرَّحْمة[١]. كما أن الرَحْمَةُ: الرِقَّةُ والتعطُّفُ. والمرحمةُ مثلهُ[٢]. وفى وصف النبي الكريم بهاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله- سبحانه- :(رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) تكريمٌ للرسول الكريم، ورفعٌ لقدره عند ربه.

كما أن التعريف بالتنكير في اللفظتين أيضًا يُفيد التعظيم، فالنبيُّ- ﷺ- عظيم الرأفة والرحمة بأمته. والتعريف بالإضافة أيضًا في اللفظتين يُفيد التفخيم والتعظيم.

(١) الإبانة في اللغة العربية، تأليف/ سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتَبي الصحَاري، تحقيق: د: عبد الكريم خليفة، د: نصرت عبد الرحمن، د: صلاح جرار، د: محمد حسن عواد، د: جاسر أبو صفية، ٣: ١٦٧، ط: وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، الطبعة الأولي، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة:[ر ح م].

المبحث الرابع

وصفه - ﷺ - بالخُلُق العظيم

وصف اللهُ- تعالى- نبيه الكريم-ﷺ - في قرآنه المجيد بالخُلُقِ العظيمِ فقال- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]، فقد اشتمل خُلُقه على الرفق واللين والقول الحسن والمعاملة الطيبة حتى مع الأعداء، وقد تعددت الأقوال في سبب وصف الله- تعالى- للنبي- ﷺ- بهذه الصفة، فذكر الحليمي- رحمه الله- أن خُلُقه وُصف بالعظيم؛ لاشتماله على جميع الصفات الحسنة، فهو رحيمٌ بأمته، مُهابٌ على الأعداء، فكان لفظ العظيم الأفضل لوصفه. وقال الجنيد:" سمي خُلُقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه[١]. بدليل قوله- ﷺ-: عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لِتَمَامِ مَكَارِمِ الأَخْلاق، وَتَمَامِ مَحَاسِنِ الأَفْعَالِ"[٢].

وفي وصفه- ﷺ- بالخُلُقِ العظيمِ قال- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]،هذا ثناءٌ على خُلُق رسول الله - ﷺ-[٣]، أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ بَابَنُوسَ، قَالَ: قُلْنَا لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ-؟، قَالَتْ: "كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، تأليف/ شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ٤: ٣٥٣، ط: مطبعة بولاق(الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(٢) شرح السنة، تأليف/ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد زهير الشاويش، ١٣: ٢٠٢، حديث رقم: ٣٦٢٢، كتاب الفضائل، باب: فضائل سيد الأولين والآخرين محمد صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين وشمائله، ط: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف/ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د، عبد الله الخالدي، ٢: ٣٩٨، ط: مطبعة شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

الْقُرْآنُ"، فَقَرَأَتْ(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)[المؤمنون:]حَتَّى انْتَهَتْ(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[المؤمنون: ٩]، قَالَتْ: "هَكَذَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ-ﷺ"- .(١) تعني: التأدب بآدابه وامتثال أوامره، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق، وتفصيل ذلك أن رسول الله- ﷺ- جمع كل فضيلةٍ، وحاز كل خصلةٍ جميلةٍ، فمن ذلك شرف النسب ووفور العقل وصحة الفهم، وكثرة العلم، وشدّة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة والتودد والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك، حسبما ورد في أخباره وسيره - ﷺ-:"إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"(٢)، وقال الجنيد: "سُمى خُلُقه عظيمًا، لأنه لم تكن له همة سوى الله -عز وجل-"(٣).

وقد وصفه اللهُ- تعالى- هنا بما يخالف حال المجنون(٤) فقال- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]، وهذا كالتفسير لقوله:(مَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)[القلم:٢]؛ لأنّ الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرةٌ عليه، ومن كان كذلك لم تجز إضافة الجنون إليه ولما كانت أخلاق رسول الله- ﷺ- كاملةٌ حميدةٌ وأفعاله المرضية الجميلة وافرةٌ، وصفها الله- تعالى- بأنّها عظيمةٌ وحقيقة الخُلُق: قوى نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة

(١) السنن الكبرى، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ١٠: ١٩٣، حديث رقم: ١١٢٨٧، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١ه- ٢٠٠١م.

(٢) الفوائد، تأليف/ أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي ثم الدمشقي، تحقيق: حمدى عبد المجيد السلفي، ١: ١٢٢، حديث رقم: ٢٧٦، ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل،٢: ٣٩٩.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، ٤: ٣٢٣.

والآداب المرضية فيصير ذلك كالخلقة في صاحبه ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والتشديد في المعاملات ويستعملُ في حسن الخلق التحبب إلى الناس بالقول والفعل والبذل وحسن الأدب والمعاشرة بالمعروف مع الأقارب والأجانب والتساهل في جميع الأمور والتسامح بما يلزم من الحقوق وترك التقاطع والتهاجر واحتمال الأذى من الأعلى والأدنى مع طلاقة الوجه وإدامة البشر فهذه الخصال تجمع جميع محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال[1] ولقد كان جميع ذلك في رسول الله – ﷺ-؛ ولهذا وصفه الله – تعالى- بقوله:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، وقال ابن عباس معناه : على دينٍ عظيمٍ لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن هو آداب القرآن سئلت عائشة- رضي الله عنها- عن خلق رسول الله- ﷺ- فقالت كان خلقه القرآن وقال قتادة هو ما كان يأتمر من أوامر الله وينتهي عنه من مناهي الله- تعالى- والمعنى: وإنك لعلى الخلق الذي أمرك الله به في القرآن وقيل: سمى الله خلقه عظيمًا؛ لأنّه امتثل تأديب الله إياه بقوله:(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ)[الأعراف:١٩٩] والله- سبحانه وتعالى- أعلم[2].

والخُلُق: ملكة نفسانية يقدر معها على الإتيان بالفعل الجميل بمواتاة وسهولة، فإذا وصفه مع ذلك بالعظم وهو كونه على الوجه الأجمل والنهج الأفضل لم يكن خلق أحسن منه. وفيه إشارةٌ إلى أن نعم الله – تعالى- كانت ظاهرة نفي الجنون عنه ودلالةٌ على تكذيب الحساد لأن المجنون لا خلق له يحمد أو عليه يعتمد، والنبي- ﷺ- كان من حسن الخلق المتشابه بحيثُ كان مجمع أخلاق سائر الأنبياء وكان يوجد فيه ما كان متفرقًا فيهم، وإليه الإشارة بقوله:(فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ)[الأنعام:٩٠] أي: اقتد بكل منهم فيما اختص به من الخلق الكريم وفي قوله:(لَعَلَى) إشارةٌ إلى أنه مستولٍ على أحسن الأخلاق الفاضلة لا

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، ٤: ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق،٤ : ٣٢٣.

يزعه عنها وازعٌ[١]. عَنْ سَعِيدِ بْنِ هِشَامٍ، أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحَ عَلَى عَائِشَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَسَأَلَهَا فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ- ﷺ-. قَالَتْ: "أَلَيْسَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ-ﷺ- الْقُرْآنُ"[٢]. وفي رواية: قرأت(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)[المؤمنون: ١][٣].

وقد قال اللهُ- عز وجل- لنبيه - ﷺ-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) قال المفسرونَ: كان خلقُهُ مَا قَالَ اللَّهُ- سبحانَه-:(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[الأعراف: ١٩٩] انتهى[٤]. قال ابن جرير: "أي: أدبٌ عظيمٌ. وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه"[٥].

وقد مدح اللهُ نبيه بحسن الخُلُق فى مواضع من كتابه فقال:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]، وقال:(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[التوبة:١٢٨] [٦]. فقوله- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النسيابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ٦: ٣٣٥، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه.

(٢) المستدرك على الصحيحين، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النسيابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ٢: ٦٧٠، حديث رقم: ٤٢٢٢، باب: ومن كتاب آيات رسول الله- صلى الله عليه وسلم- التي هي دلائل النبوة، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان،٦: ٣٣٥.

(٤) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف/ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد على معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ٥: ٤٦٥، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه.

(٥) محاسن التأويل،٩: ٢٩٦.

(٦) تفسير المراغي، تأليف/ أحمد بن مصطفي المراغي، ٤: ١١٢، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ه- ١٩٤٦م.

عَظِيمٍ)، هو تقريرٌ لما تضمنه قوله- تعالى-:(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)[القلم:٣]، فهذا الأجر غير الممنون، هو ثمرةٌ لهذا الخُلُق العظيم، الذي كان عليه رسول الله- ﷺ-.. وحسب رسول الله بهذا الوصف الكريم، من الله - سبحانه وتعالى- حسبه بهذا شرفًا وعزًا، حيث توُجّه ربه- جلّ وعلا- بتاج الكمال كله، إذ ليس بعد حسن الخُلُق حليةٌ تتحلى بها النفوس، أو تاجٌ تتّوج به الرؤوس.. ففي مغارس الخُلُق الحسن، كانت رسالات المرسلين، ومن أجل حماية هذه المغارس، وإطلاع ثمرها، كانت دعوة الرسل، وكان جهادهم، الذي توج بدعوة سيد الرسل، وجهاد خاتم النبيين..[١] وفى هذا يقول:- ﷺ-:"إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[٢].

وبعد أن آنس نفس رسوله- ﷺ- بالوعد عاد إلى تسفيه قول الأعداء فحقق أنه متلبسٌ بخلقٍ عظيمٍ وذلك ضد الجنون مؤكدًا ذلك بثلاثة مؤكدات مثل ما في الجملة قبله[٣]. فَقَدْ أَكَّدَ هَذَا السِّيَاقَ بِعَوَامِلِ الْمُؤَكِّدَاتِ بِانْدِرَاجِهِ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ الْأَوَّلِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَبِإِنَّ اللَّامَ فِي(لَعَلَى)، وَجَاءَ ب[عَلَى] الدَّالَّةِ عَلَى الِاسْتِعْلَاءِ وَالتَّمَكُّنِ بَدَلًا مِنْ ذُو مَثَلًا: ذُو خُلُقٍ عَظِيمٍ لِبَيَانِ قُوَّةِ التَّمَكُّنِ وَالِاسْتِعْلَاءِ، وَأَنَّهُ - ﷺ- فَوْقَ كُلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ مُسْتَعْلٍ عَلَيْهِ[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ١٥: ١٠٨١- ١٠٨٢.

(٢) مسند الشهاب، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ٢: ١٩٢، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ه- ١٩٨٦م.

(٣) التحرير والتنوير،٢٩: ٦٣- ٦٤.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف/ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ٨: ٢٤٧- ٢٤٨، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ه- ١٩٩٥م.

و[لام الابتداء] هنا تُفيد توكيد مضمون الحكم، وهي تدخل علي شبه الجملة نحو قوله:(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(١)، والخُلُق: هو طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم يتبع بنعتٍ، وقد تقدم عند قوله تعالى:(إِنْ هَذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) في سورة الشعراء:[١٣٧]. والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعارٌ من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة. و[عَلَى] للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله:(أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ)[البقرة: ٥] ومنه قوله- تعالى-:(إِنَّكَ عَلَى الْحَقّ الْمُبِينِ)[النمل: ٧٩]،(إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[الزخرف: ٤٣]،(إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُّسْتَقِيمٍ)[الحج: ٦٧](٢).

وفي حديث عائشة: "أنَّها سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ-؟ فَقَالَتْ:" كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"(٣): أي: ما تضمنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضدادها. والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي-ﷺ- فهو حسن معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخُلُق الحسن(٤). ولهذا قالت عائشة: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"، ألست تقرأ:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)[المؤمنون:١] الآيات العشر". وعن علي: الخلق العظيم: هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وصف به النبي-ﷺ - من نحو قوله:(فَبِمَا رَحْمَةٍ مّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ)[آل عمران: ١٥٩] وقوله:(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[الأعراف: ١٩٩] وغير ذلك من آيات القرآن. وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال

---

(١) علم المعاني، د/ عبد العزيز عتيق، ص: ٥٦، ط: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

(٢) التحرير والتنوير،٢٩: ٦٣- ٦٤.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٤٣: ١٥، حديث رقم: ٢٥٨١٣.

(٤) التحرير والتنوير،٢٩: ٦٣- ٦٤.

رسول الله-ﷺ-:"إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاق"(١)، فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول- ﷺ- أكبرُ مظهرٍ لما في شرعه قال- تعالى-:(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا)[الجاثية: ١٨] وأمره أن يقول:(وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[الأنعام: ١٦٣]. فكما جعل الله رسوله -ﷺ- على خلقٍ عظيمٍ جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخُلُق العظيم بمنتهى الاستطاعة(٢).

وبهذا يزداد وضوحًا معنى التمكن الذى أفاده حرف الاستعلاء في قوله:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فهو متمكنٌ منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكنٌ منه في دعوته الدينية. واعلم أن جماع الخُلُق العظيم الذى هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجمود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة(٣). والأخلاقُ كامنةٌ في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة. وأما مظاهرها في رسول الله - ﷺ- ففي ذلك كله وفي سياسته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه، وجوامع كلمه(٤).

وإِذَا كَانَ فِي مَجِيءِ الْآيَةِ قَبْلَ هَذِهِ:(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤] رَدٌّ عَلَى دَعْوَاهُمُ الْكَاذِبَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- بِالْجُنُونِ(٥). فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْزِيهُهُ - ﷺ- مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ رَذَائِلَ وَنَقَائِصَ وَافْتِضَاحٌ لَهُمْ. وَبَيَانُ الْفَرْقِ وَالْبَوْنِ الشَّاسِعِ

(١) مسند الشهاب، ٢: ١٩٢.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٩: ٦٤.

(٣) المرجع السابق، ٢٩: ٦٤.

(٤) المرجع السابق، ٢٩: ٦٤- ٦٥.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن للقرآن،٨: ٢٥٣.

بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي وَصَفَهُ بِأَنَّهُ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، وَصَفَهُمْ بِعَكْسِ ذَلِكَ مِنْ: كَذِبٍ، وَمُدَاهَنَةٍ، وَكَثْرَةِ حَلِفٍ، وَمَهَانَةٍ، وَهَمْزٍ، وَمَشْيٍ بِنَمِيمَةٍ، وَمَنْعٍ لِلْخَيْرِ، وَعُتُلٍّ، وَتَجَبَّرٍ، وَاعْتِدَاءٍ، وَظُلْمٍ، وَانْقِطَاعِ زَنِيمٍ، عَشْرُ خِصَالٍ ذَمِيمَةٌ. وَنَتِيجَتُهَا الْوَسْمُ بِالْخِزْيِ عَلَى الْأُنُوفِ صَغَارًا لَهُمْ[١].

فقوله:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ): ياله من شرفٍ رفيعٍ ، وقدرٍ منيعٍ؛ لم يخطر على قلب بشرٍ، ولم يطمح لإدراكه إنسانٌ[٢]، ولم يدرك شأوه مخلوقٌ: رب العزة يصفُ محمدٌ بن عبد الله بأنه على خلقٍ عظيمٍ فأيُّ فضلٍ شمل الله – تعالى– به نبيه وأيُّ مقامٍ رفع إليه عبده، ورسوله، وصفيه وخليله؟ وقد كان من خلقه: العلم، والحلم، والعدل، والصبر، والشكر، والزهد، والعفو، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والرحمة، والوقار، وحسن الأدب والمعاشرة؛ إلى ما لا حد له من الأخلاق المرضية، والخلال العلية؛ التي اختصه بها خالقه –جل شأنه– [٣].

وجاءت الاستعارة التبعية بالحرف في قوله:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤]: فالحرف[على] معناه الاستعلاء، حيثُ شبّه التمكن من الهدى والأخلاق العظيمة الشريفة والثبوت عليها بمن على دآبةٍ يصرفها كيف شاء وكذلك قولهم: عليه دينٌ كأنّ شيئًا اعتلاه وكما في قوله:(عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ)[الأنبياء: ٦١]أي: يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن منها ثبات الراكب على المركوب وتملكه منه[٤]. فقد شبّه الخلق بشيءٍ محسوسٍ يستعلى عليه ويركب

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن للقرآن،٨: ٢٥٣.

(٢) أوضح التفاسير، تأليف/ محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، ١: ٧٠١، ط: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة السادسة، رمضان ١٣٨٣ه– فبراير ١٩٦٤م.

(٣) المرجع السابق، ١: ٧٠١.

(٤) إعراب القرآن وبيانه، تأليف/ محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، م٦: ٣٣٣، ط: دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية،(دار اليمامة، دمشق، بيروت)،(دار ابن كثير، دمشق، بيروت)، الطبعة الرابعة، ١٤١٥ه.

كالدآبة والطائرة بجامع التمكن والاستقرار، ثم استعير المشبه به للمشبه ثم حذف المشبه به ودل عليه بشيءٍ من لوازمه وهو[على] على طريق الاستعارة التبعية[1]. ولمّا كان حرف[علي] يُفيد هذا المعني فقد حسنت استعارته علي طريقة الاستعارة التبعية، باعتبار أن معاني الحروف تابعة للمعاني في الأسماء[2].

وهنا يقرن الحقُّ- سبحانه- بين العقل وبين الخُلُق فيقول:(وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم: ٤]، ويُقَال: فلانٌ على خُلُقٍ. أي: يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل؛ مثل الصِّدْق والأمانة؛ وهذه صفاتٌ يَنْظِمها في مواقفها الفِكْر العقليّ؛ وهو الذي يُميِّز لنا أيَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة؛ أو لِينٍ؛ أو حكمةٍ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل[3].

وهذه آية القلم من أوائل الوحي:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، شهادةٌ إلهيةٌ بعظمة خُلُق المصطفى -ﷺ-، تتوج ما كان معروفًا من مكارم أخلاقه، وتمنحه القوة على مواجهة المكذبين الطاغين[4]. ثم أثنى- سبحانه- عليه بأجمل ثناءٍ وأطيبه فقال:(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤][5]. والخُلُق- كما يقول الإمام الرازي-"ملكة نفسانية، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة"[6]. والعظيم: الرفيع القدر، الجليل الشأن، السامي المنزلة. أي: وإنك- أيها الرسول الكريم- لعلى دينٍ عظيمٍ، وعلى خُلُقٍ كريمٍ، وعلى سلوكٍ قويمٍ في كل ما تأتيه، وما تتركه من أقوالٍ وأفعالٍ. والتعبير بلفظ:(عَلَى) يشعر بتمكنه- ﷺ- ورسوخه

(١) إعراب القرآن وبيانه، م٦: ٣٣٣.

(٢) البلاغة العربية، تأليف/ عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة الميداني الدمشقي، ٢: ٢٣٩، ط: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤١٦ه- ١٩٩٦م.

(٣) تفسير الشعراوي[الخواطر]، ١٢: ٧٣٤٤.

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم، تأليف/ عائشة محمد على عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، ٢: ٥١، ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة،(د ت).

(٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٥: ٤٠.

(٦) مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٣٠: ٦٠١.

في كل خُلُقٍ كريمٍ. وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون؛ لأن الجنون سفهٌ لا يحسن معه التصرف. أما الخُلُق العظيم فهو أرقى منازل الكمال في عظماء الرجال(١). وسياق الكلام هنا في معرض المدح الدالّ علي إرادة الاستمرار مع الثبوت(٢).

والتنكير في:(خُلُقٍ عَظِيمٍ) يفيد التعظيم، فالنبي- ﷺ- هو صاحب الخلق العظيم، والأفعال الجميلة الحسنة، كما أن التعريف بالإضافة يفيد التفخيم والتعظيم، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن. وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من ثناءٍ من الله- تعالى- على نبيه- ﷺ -(٣).

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: قال قتادة:" ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة عن معنى هذه الآية فقالت:" ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله- ﷺ- كان القرآن"(٤). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ- ﷺ-، صَارَ امتثالُ الْقُرْآنِ، أَمْرًا وَنَهْيًا، سَجِيَّةً لَهُ، وَخُلُقًا تَطَبَّعَه، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الجِبِلِّي، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ. هَذَا مَعَ مَا جَبَلَه اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُق الْعَظِيمِ، مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ، وَكُلِّ خُلُقٍ

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٥: ٤٠.

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تأليف/ أحمد بن إبراهيم بن مصطفي الهاشمي، ص: ٦٧، ط: المكتبة العصرية، بيروت، [د ت].

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٥: ٤٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، تأليف/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ٨: ١٨٨، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

جَمِيلٍ[١]. وكيف لا يكون- ﷺ - جماع كل خُلُقٍ عظيمٍ[٢]. وهو القائل: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[٣].

وعلي مدار تلك الآية العظيمة التي وصفت سيد الخلق- ﷺ- بالخُلُق العظيم، نجد أن القرآن الكريم انتقى لفظة الخُلُق دون غيرها من الألفاظ الأخري؛ وذلك لأن الخُلُق: هو الخليقة وطباع النفس، قَالَ اللَّيْثُ: خلق: الْخَلِيقَةُ: الْخُلُقُ، وجَمْعُها: الْخَلائِقُ. أَبُو عُبَيْد، عَن أَبِي زَيْدٍ: إِنَّه لكريم الطبيعة والْخَلِيقَة والسَّلِيقَة: بِمَعْنًى وَاحِد[٤]. ووصفه بالعظيم؛ وذلك لأنّ الشيء العظيم: هو الذي فاق كل شيء فلا يستطيع أن يصل إليه أي عقلٍ، والنبيُّ- ﷺ- فاقت أخلاقه كل وصف ف(عَظُمَ) فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ- تَعَالَى-[الْعَظِيمُ] هُوَ الَّذِي جاوَزَ قدْرُه وجلَّ عَنْ حُدُود العقول، حَتَّى لَا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بكُنْهه وحَقِيقته[٥]. والفرق بين العظيم والكبير: أن العظيم قد يكون من جهة الكثرة ومن غير جهة الكثرة، ولذلك جاز أن يوصف

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨ : ١٨٩.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٥: ٤١.

(٣) السنن الكبرى، تأليف/ أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ١٠: ٣٢٣، حديث رقم: ٢٠٧٨٢، باب: بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقًا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(٤) تهذيب اللغة، تأليف/ محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، مادة:[خ ل ق]،ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولي، ٢٠٠٤م

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف/ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ٣: ٢٥٩- ٢٦٠، ط: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م.

الله- تعالى- بأنه عظيم وإن لم يوصف بأنه كثير، وقد يعظم الشيء من جهة الجنس ومن جهة التضاعف(١).

والتنكير في:(خُلُقٍ عَظِيمٍ) يفيد التعظيم، فالنبي- ﷺ- هو صاحب الخلق العظيم، كما أنّ التعريف بالإضافة يفيد التفخيم والتعظيم، فضلًا عن المؤكدات العديدة الواردة في تلك الآية والتي تفيد التقرير والتوكيد قال- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[سورة القلم:٤]، كذلك كان للاستعارة التبعية دورٌ كبيرٌ في تقرير المعني وترسيخه في النفس، فالآية الكريمة تقرر أن النبي- ﷺ- هو أفضل البشر خُلُقًا وعدلًا ووصفًا، ومن هنا جاء وصف الخُلُق ب[العظيم] دون غيره من الأوصاف الأخري كالكبير وخلافه.

(١) معجم الفروق اللغوية، تأليف/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ص: ٣٦١، ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب[قم]، الطبعة الأولي، ١٤١٢ه.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت برسالته الرسالات، سيدنا محمد الهادي الأمين صاحب الخُلُق العظيم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فقد تناول البحث بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن بعض صفات النبي- ﷺ-، وقد بدأتُ بمقدمةٍ تحدثتُ فيها عن أهمية الموضوع، والدافع إليه، ومنهج الدراسة، ثم التمهيد وتحدثتُ فيه عن مفهوم الوصف في اللغة والاصطلاح، ثم المبحث الأول، وفيه: وصفه- ﷺ - بالبشير النذير، ثم المبحث الثاني، وفيه: وصفه- ﷺ- بالشهيد، ثم المبحث الثالث، وفيه: وصفه- ﷺ - بالرؤوف الرحيم، ثم المبحث الرابع، وفيه: وصفه- ﷺ- بالخُلُق العظيم، وقد توصلت الدراسة في نهاية المطاف إلى عدة نتائج أهمها ما يأتي:

أولًا: كثرة الآيات القرآنية الواردة في وصف الحبيب المصطفي- ﷺ - وكثرتها يدل على عظمة الموصوف- ﷺ -.

ثانيًا: تنوعت الصفات الواردة في وصف الحبيب المصطفي- ﷺ - ما بين البشير النذير، والشهيد، والرءوف الرحيم، وصاحب الخُلُق العظيم، وغيرها الكثير والكثير....

ثالثًا: وردت بعض هذه الصفات في القرآن الكريم مقترنةً ببعضها ك[بشيرًا ونذيرًا] و[رءوفًا رحيمًا]، والبعض الآخر ورد مفردًا بدون اقتران كصفة[الشهيد] و[ذو الخُلُق العظيم].

رابعًا: التعريف بالتنكير في:[بشيرًا ونذيرًا] و[شهيدًا] و[رءوفًا رحيمًا] وهو يفيد التعظيم، فالنبيُّ- ﷺ - هو أكثر الأنبياء رأفةً ورحمةً بأمته.

خامسًا: التعريف بالإضافة في:(خُلُقٍ عَظِيمٍ) وهو يفيد التفخيم والتعظيم، فالرسول الكريم -ﷺ - هو صاحب الخُلُق العظيم حتي مع أشد أعدائه.

سادسًا: جاءت الاستعارة التبعية بالحرف في قوله- تعالى-:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، وهي تدل على التمكن والتمام والكمال، فالنبيُّ -ﷺ - بلغ الكمال في الهدي والأخلاق العظيمة الرفيعة.

سابعًا: وصف القرآن الكريم النبيُّ الكريمُّ بصفتين من صفات الله- تعالى- وهما:[الرءوف الرحيم]؛ وذلك تكريمٌ للنبي-ﷺ - ورفعٌ لقدره عند ربه، ولم يرد هذا الوصف المشترك إلا للرسول الكريم-ﷺ -.

ثامنًا: هذه الأوصاف المتعددة التي وردت في القرآن الكريم لم ترد إلا لسيد البشرية-ﷺ- دون غيره من بقية الأنبياء والرسل الكرام- عليهم السلام-.

تاسعًا: اجتماع كل أطياف البلاغة العربية في الآيات القرآنية الواردة في وصف النبي الكريم-ﷺ -؛ وذلك تأكيدًا على تحقق هذا الوصف في سيد البشرية-ﷺ- فضلًا عن دور الألفاظ البالغ في اختيار هذا الوصف.

هذا، والله أسأل أنْ يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات، وأنْ يتجاوز عن العثرات والهفوات، إنَّه سميع مجيب.

فهرس المصادر والمراجع

١ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف/ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت،[د ت].

٢ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن للقرآن، تأليف/ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ه- ١٩٩٥م.

٣ــ إعراب القرآن وبيانه، تأليف/ محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، ط: دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية،(دار اليمامة، دمشق، بيروت)،(دار ابن كثير، دمشق، بيروت)، الطبعة الرابعة، ١٤١٥ه.

٤ــ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تأليف/ أبى عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيِّم الجوزيَّة، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ه- ١٩٧٥م.

٥ــ آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، د/ ياسين الأيوبي، ط: جروس برس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٦ــ الإبانة في اللغة العربية، تأليف/ سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتَبي الصحَاري، تحقيق: د: عبد الكريم خليفة، د: نصرت عبد الرحمن، د: صلاح جرار، د: محمد حسن عواد، د: جاسر أبو صفية، ط: وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، الطبعة الأولي، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

٧ــ البحر المحيط في التفسير، تأليف/ أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقى محمد جميل، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ه.

٨ــ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تأليف/ أبو العباس بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، سنة: ١٤١٩ه.

٩ــ البلاغة العربية، تأليف/ عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة الميداني الدمشقي، ط: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤١٦ه- ١٩٩٦م.

١٠ــ التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ه.

١١ــ التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف/ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د، عبد الله الخالدي، ط: مطبعة شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه.

١٢ــ التفسير البياني للقرآن الكريم، تأليف/ عائشة محمد على عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة،(د ت).

١٣ــ التفسير القرآني للقرآن، تأليف/ عبد الكريم يونس الخطيب، ط: دار الفكر العربي، القاهرة،[د ت].

١٤ــ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، تأليف/ د: وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨ه.

١٥ــ التفسير الوسيط للزحيلي، تأليف/ د: وهبة بن مصطفي الزحيلي، ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه- ٢٠٠١م.

١٦ــ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث بالأزهر، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ه- ١٩٧٣م- ١٤١٤ه- ١٩٩٣م.

١٧ــ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٨ــ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه= صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

١٩ــ الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٤ه- ١٩٦٤م.

٢٠ــ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف/ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد على معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه.
٢١ــ السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير، تأليف/ شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ط: مطبعة بولاق(الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥ه.
٢٢ــ السنن الكبرى، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على الخراساني النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه- ٢٠٠١م.
٢٣ــ السنن الكبرى، تأليف/ أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخسروجردي الخراساني أبوبكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ه- ٢٠٠٣م.
٢٤ــ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف/ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت،[د ت].
٢٥ــ العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تأليف/ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، ط: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ه.
٢٦ــ الفروق اللغوية، تأليف/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ص: ١٩٦، ط: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،[د ت].
٢٧ــ الفوائد، تأليف/ أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبدالله بن الجنيد البجلي الرازي ثم الدمشقي، تحقيق: حمدى عبدالمجيد السلفي، ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه- ١٩٩١م
٢٨ــ اللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص سراج الدين عمر بن على بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه- ١٩٩٨م.

٢٩ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف/ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطيه الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.
٣٠ــ المحكم والمحيط الأعظم، تأليف/ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤٢١ه- ٢٠٠٠م.
٣١ــ المستدرك على الصحيحين، تأليف/ أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النسيابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ه- ١٩٩٠م.
٣٢ــ المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان بن عدنان الداوودي، ط: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه.
٣٣ــ الموطأ، تأليف/ مالك بن أنس بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: محمد مصطفي الأعظمي، ط: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ه- ٢٠٠٤م.
٣٤ــ النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف/ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م.
٣٥ــ أوضح التفاسير، تأليف/ محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، ط: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة السادسة، رمضان ١٣٨٣ه- فبراير ١٩٦٤م.
٣٦ــ بحر العلوم، تأليف/ أبو الليث بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي،(د ت).
٣٧ــ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٣٨ــ تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، تأليف/ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه.

٣٩ــ تفسير الشعراوي[الخواطر]، تأليف/ محمد متولى الشعراوي، ط: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
٤٠ــ تفسير الطبري(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تأليف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، تحقيق: الدكتور، عبدالله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه- ٢٠٠١م.
٤١ــ تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار)، تأليف/ محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني الحسيني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٤٢ــ تفسير القرآن العظيم، تأليف/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، تحقيق: سامى بن محمد سلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.
٤٣ــ تفسير الماتريدي(تأويلات أهل السنة)، تأليف/ محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د، مجدي باسلوم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م.
٤٤ــ تفسير المراغي، تأليف/ أحمد بن مصطفى المراغي، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ه- ١٩٤٦م.
٤٥ــ تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تأليف/ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الله النسفي، تحقيق: يوسف على بديوي، ط: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه- ١٩٩٨م.
٤٦ــ تهذيب اللغة، تأليف/ محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولي، ٢٠٠١م.
٤٧ــ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تأليف/ أحمد بن إبراهيم بن مصطفي الهاشمي، ط: المكتبة العصرية، بيروت، [د ت]،
٤٨ــ ديوان لبيد بن ربيعة العامري شرح الطوسي، تأليف/ لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري الشاعر، تحقيق: الدكتور: حنا نصر، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه.
٤٩ــ روح البيان، تأليف/ إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء، ط: دار الفكر، بيروت،[د ت].

٥٠ــ زاد المعاد في هدى خير العباد، تأليف/ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد شمس الدين المشهور بابن قيِّم الجوزيَّة، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٥١ــ زهرة التفاسير، تأليف/ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، ط: دار الفكر العربي،[د ت].
٥٢ــ شرح السنة، تأليف/ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، ط: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٥٣ــ علم المعاني، د/ عبد العزيز عتيق، ط: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٥٤ــ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النسيابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٥٥ــ فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن على ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٥٦ــ لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف/ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمرو الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، تحقيق: تصحيح محمد على شاهين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٥٧ــ لسان العرب، تأليف/ محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٥٨ــ محاسن التأويل، تأليف/ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد إسماعيل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٥٩ــ مختار الصحاح، تأليف/ زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٦٠ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف/ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون،(د ت).

٦١ــ مسند الشهاب، تأليف/ أبو عبدالله محمد بن سلامه بن جعفر بن على بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدى بن عبد المجيد السلفي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ه- ١٩٨٦م.

٦٢ــ معجم الفروق اللغوية، تأليف/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب[قم]، الطبعة الأولي، ١٤١٢ه.

٦٣ــ معجم مقاييس اللغة، تأليف/ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م.

٦٤ــ مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه.

٦٥ــ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، تأليف/ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،[د ت].

٦٦ــ موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، تأليف/ الأستاذ الدكتور: حكمت بن بشير بن ياسين، ط: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

٦٧ــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف/ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن على بن أبي بكر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،(د ت).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	
١-	الملخص	١٢٤٤
٢-	Abstract	١٢٤٦
٣-	المقدمة	١٢٤٧
٤-	التمهيد :مفهوم الوصف في اللغة والاصطلاح	١٢٥٠
٥-	المبحث الأول: وصفه- ﷺ - بالبشير النذير.	١٢٥٢
٦-	المبحث الثاني: وصفه- ﷺ - بالشهيد.	١٢٧١
٧-	المبحث الثالث: وصفه- ﷺ- بالرؤوف الرحيم.	١٢٩١
٨-	المبحث الرابع: وصفه- ﷺ - بالخُلُق العظيم.	١٣٠٤
٩-	الخاتمة	١٣١٦
١٠-	فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم	١٣١٨
١١-	فهرس الموضوعات	١٣٢٥